Christophe Guillaumot

رواية

جزيرة السيدة إليوت

Lady Elliot Island

ترجمة: سلمى الغزاوي

دار دوّن

جزيرة السيدة إليوت

كريستفر عيونو: جزيرة السيدة إليوت

الطبعة العربية الأولى: يونيو 2023

رقم الإيداع: ١٣٩٧٨ /٢٠٢٢ - الترقيم الدولي: 1 - 314 - 806 - 977 - 978

جَميـعُ حُـقـــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب

لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة

وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

www.Dardawen.com info@dardawen.com

كريستفر عيونو

جزيرة السيدة إليوت

رواية

ترجمة:

سلمى الغزاوي

دون للنشر والتوزيع

هنا

1

ها أنا أعمل داخل غرفتي بينما يفتح حاسوبي على موقع «يوتيوب» وبجانبي زجاجة من المياه الغازية وأغراضي المبعثرة هنا وهناك، وإذا بقطرة ماء تسقط فوق واجبي المدرسي حيث تستقر على الورقة مباشرة لتمحي الكلمات المكتوبة، فتتبخر الجمل وتضيع عليَّ ساعات من العمل بلا جدوى. وما إن أرفع رأسي لفوق حتى أرى الماء ينساب على الدعامات الظاهرة التي تحمل السقف من فوقي، يا له من تَسَرُّب هائل غير مفهوم!!

الأمر الذي يجبرني على النهوض من مقعدي لأتفاجأ أن الأرضية أيضًا قد غمرتها المياه التي يرتفع منسوبها بسرعة كبيرة، وبينما أحاول فهم ما يحدث تتجمد كلٌّ من قدميَّ وركبتيَّ بالكامل وصولًا إلى خصري.. ثم أندفع صوب النافذة لأحاول فتحها لكن مقبضها العالق يحول دون ذلك، ولهذا أعود أدراجي وأنا أفكر في طريقة للهرب، أو لإبلاغ أمي بما يحدث، وعندما أصل إلى الجانب الآخر من الغرفة يرفض الباب إطلاق سراحي، فيصيبني الهلع وأصرخ دون أن ينبعث الصوت من فمي.

وبينما يزداد شعوري بالدهشة يرتفع منسوب المياه أكثر حتى يجبرني على رفع ذقني كي لا أبتلعها رغمًا عني، فيزداد خوفي من الغرق.. فأبحث يائسة عن شيء يمكنني الاتكاء عليه، إلى أن أتشبث بقدمي في المقعد ثم أقف فوقه لأمنح نفسي لحظة استراحة. لعل أحدهم يلاحظ ما يحدث معي في نهاية المطاف. لكنني أضطر إلى الميل برأسي كي أتنفس وأنا محبوسة في تلك المساحة الضيقة المتبقية، وعندما أدرك أنه لا يتبقى أمامي سوى بضع ثوانٍ. وأنه ينبغي أن أعثر على وضعية أخرى أكسب من خلالها بعض الوقت. أجرب السباحة على ظهري لعلي أتمكن من الطفو لكن جسدي يغرق بأكمله عدا شفتيَّ، حيث يوشك فمي على ملامسة السقف في محاولة استنشاق الهواء القليل المتبقي في الغرفة، حتى أكاد أختنق بينما ينغلق فمي تلقائيًّا حتى أتغلغل في المياه..

وبعدها أميل بطريقة تُشعرني بدوار حتى إنني لم أعد أتعرف على غرفتي. فأتساءل أين أنا؟ لكنني أشعر بالبرد والخوف وسط عتمة المياه. كما أشعر أن ثمة ظلال تطوف من حولي كأنها تترصدني، ها هي تلامسني، فأصرخ حتى أفرغ رئتيَّ من مخزون الهواء الأخير المتبقي بداخلهما، فأرى عينًا بيضاء تُحَدِّقُ إليَّ في حين يتسرب الماء إلى حلقي.

- لاااااااااا!!!

أستيقظ من نومي في تلك اللحظة وأنا أتصبب عرقًا بينما يخفق قلبي بشدة، وأبحث عن زر تشغيل المصباح المجاور لسريري، لأجدني في غرفتي والمياه لا تغمرها كما ظننت! أوف!

أدرك أنه كابوس آخر، فمنذ بداية نوبات صداعي المرتبطة بحَالة عينيَّ وأنا أمر بليالٍ عصيبة كتلك، حيث بدأ كل شيء دون سابق إنذار ودون وعي مني حين صرت أرى هالة من الضوء على مدى نظري، وكأن أحدهم يُسَلِّطُ عليَّ شعاع ليزر فيظهر نور قوي حاضر دومًا حتى حينما أغلق عينيَّ.

وقد حدث هذا لأول مرة منذ بضعة أسابيع حيث كنتُ أضع يدي على عيني لأَقِيهِمَا من الشمس، مع أنها لم تكن ساطعة لهذه الدرجة، ومن حينها وأنا أفرك عيني لأجعل هذا النور الشيطاني يختفي لكنه يعود بلا توقف مُسببًا لي آلامًا في الرأس، كما أنه يُثير لديَّ نوبات من الغضب، فمهما فعلتُ يظهر هذا النور مجددًا حتى يدفعني إلى حافة الجنون.

حتى قالت لي أمي ذات مرة:

- لقد اكتسبتِ حركة لا إرادية! فأنت تقطبين جبينك في كل مرة أجدك تقرئين فيها.

وحينها لم أستطع أن أخفي عليها انزعاجي لمُدَّةٍ أطول، لأجيبها قائلة:

- إنني ألمح الكلمات، لكن الغريب هو أن الحروف تظل ضبابية. كما إنه لديَّ شعور مستمر بأن هناك كَشَّافًا ضوئيًّا يُعميني.

أخذت لي أمي على الفور موعدًا من أجل الفحص الطبي، وقصدنا معًا اختصاصي طب العيون الذي أجرى لي سلسلة من الفحوص قبل أن يصف لي ارتداء نظارات طبية.

وهأنا، كلارا لونوار الفتاة المؤثرة في الآلاف من طلاب الثانوية بفضل حسابي على موقع إنستغرام وقناتي على اليوتيوب، صار يتحتم عليَّ أن أضع نظارة طبية!

قلت له في ذلك الحين:

- إنني أُفَضِّلُ العدسات اللاصقة.

فأجابني الاختصاصي:

- لا، إنه مستحيل في حالتك.

- يا له من أمر مؤسف، كنتُ سأحبُ تغيير لون قُزحية عيني من اللون الأزرق الشاحب إلى الأزرق المُشِعّ.

لكن التفاوض معه بهذا الشأن لم يكن ممكنًا، وإنما كان عليَّ أن أتقبل الشروع في البحث عن إطار لتلك النظارات. وبعد تفكير عميق حَوَّلْتُ شعوري بخيبة الأمل إلى شيء إيجابي. وفكرت في إعادة إحياء موضة النظارات بأن أعثر على نظارة لا مثيل لها، نظارة باهظة الثمن لا يمكن أن يقلدها أحد.

وبالفعل حاولت ماري وهي واحدة من أقرب صديقاتي أن تقتني نظارة مماثلة لنظارتي وفشلت. حيث قالت لي:

لقد بحثتُ في كل مكان، إنها غير موجودة! أظن أن هذه القطعة فريدة من نوعها.

إن والدي ماري هما وارثا لعائلات عريقة من تولوز، ويملكان ثروة عقارية تضمن لهما نمط حياة مترف دون حاجة إلى العمل، أما ماري فهي تحرص على اتباع صيحات الموضة التي أطلقها، فهذه الفتاة لا تملك أي ذوق خاص بها وإنما تراقب أبسط تغيير في خزانة ثيابي لتفعل مثله.

ولا أعلم ما الذي يجعلنا قريبتين من بعضنا غير أننا ننتمي إلى نفس الوسط الاجتماعي، ونعيش شبابنا بسعادة ونحن ننفق أموال آبائنا في بذخ لقضاء الأمسيات، كما أنها تسير تابعةً لي لدرجة أنها تصبغ شعرها كي يتشابه لونه مع لون شعري الأشقر، وتقضي الوقت في صالة الرياضة كي تتخلص من الدهون وتجعل جسدها متناسقًا كجسدي تمامًا. حتى إنني عندما أخذت منها صديقها الحميم في خلال حفلة ممتلئة بالمشروبات الكحولية، وخضت معه مغامرة بلا مستقبل، فإنها لم تَلُمْنِي على ذلك، وإنما قالت لي:

هذا خطأه بالكامل! إنني أكرهه. وأنا ممتنة لك يا كلارا كونك أسديتِ لي خدمة بكشفك لشخصيته الحقيقية، لقد فتحت عيني عليها.

هكذا كانت وجهة نظرها. وقد كان بوسعي أن أعتذر من ذلك لكنني لم أفعل. فعندما يقترب أحدهم مني عليه أن يعي المخاطر التي قد يتعرض لها. فأنا مصَّاصة دماء أستولي على أفضل ما في الشخص سواء إطلالته، تصرفاته، أو علاقاته. ولا أحتمل أن أرى فتاة تتشبث بذِراع فتى جميل لأنها بمنزلة إهانة لجَمالي، لشخصي. حيث يلزمني دومًا أن أثبت لنفسي أنني في القمة وأنني الأكثر إثارة، وأكثر فتاة مرغوبة بين الجميع، ومن يرغبون في أن يكونوا جزءًا

من جماعتي فإنهم يعرفون القواعد، ويتحملون مسؤولية المخاطر التي سيمرون بها.

إن ماري بمنزلة شخص مخلص مُلازِمٍ لي أستطيع أن أُعَوِّلَ عليه في كل الظروف، مثلها مثل «إلزا» التي تحلم بأن تصبح أحد حراسي المقربين. لكنها لا تملك المال الذي يُمَكِّنُها من مواكبة هَوسنا بالتسوق، ولهذا فإنها تبحث في الإنترنت عن ثياب فاخرة بسعر مُنخَفَّضٍ في محاولة أن تشبهنا، بل إنها فتحت حسابًا على إنستغرام بدأ يحظى بمتابعينَ بالفعل حيث تقترح حِيَلًا وعناوينَ من أجل العثور على ثياب أفضل بأقل تكلفة. في حين أنني أتركها بقربي كي لا تتفوق التلميذة على المعلمة، وعلى الرغم من أنها أخذتْ مني بعض المتابعين فإنني سأظل المثال الذي اتبعته في نهاية المطاف لا العكس، إن «إلزا» تشغل حيّزًا استثنائيًّا في دائرتي الخاصة، إنها من تزودنا بكل ما نحتاج إليه لأجل الانتشاء في أي أمسية من أمسياتنا، حيث تمنحنا ما يكفي لنتخيل أننا نعيش كنجوم الفن، وعلى رغم أنها تحاول التكتم بخصوص من يعطيها هذه الأشياء فإننا نعلم جيدًا أنه شقيقها الأكبر، وهو فتى وسيم سيروقني إغواؤه إن أردت، فهو يدرس في كلية الطب ويلعب في فريق الرجبي، لكنه يتجاهلني في كل مرة يصادفنا فيها مع أخته، وكأنني طفلة غير مثيرة للاهتمام بالنسبة إليه، ومع ذلك فأنا متأكدة من أنه إذا سنحت لي الفرصة لأراه في أمسية ما، فلن يستغرق مني الأمر وقتًا طويلًا كي أسجله في القائمة الطويلة لانتصاراتي.

ربما أكون طالبة ضجرة في السنة الثانية بشعبة الاقتصاد وعلم الاجتماع بالثانوية، لكنني بحسب شكل جسدي والطريقة التي أتمايل بها فأنا امرأة مكتملة، بالتأكيد لم أعبر تلك المرحلة بعد، حيث إنني لم أقِم علاقة مع أحدهم على الرغم من أن الجميع يظنون العكس، وأنا لا أفعل شيئًا كي أنفي تلك الإشاعات التي تدور حولي، فكلما تحدثوا عني أكثر سواء بطريقة جيدة أو سيئة، كلما أحسست بالرضا، لأن أهم شيء هو ملاحظة الآخرين لي باستمرار، أن أظل موجودة على الإنترنت وأثير غيرتهم.

لقد بدأت شهرتي ببساطة عبر منشور غير لائق عن التسوق باستعمال البطاقة الائتمانية السوداء الخاصة بأمي، حيث التقطت صورًا لمشترياتي وأنا أتخذ أوضاعًا مثيرة بِفَمٍ مفتوح ونظرة مفعمة بالحياة، ومن ثَمَّ نشرت الصور كلها على الإنترنت في نَفس المساء. وفي الصباح كانت الإعجابات والمتابعون قد صاروا بالمئات، وشرعوا في متابعة حسابي على الإنستغرام رغبة في صداقتي، وانتظار أن أُطَعِّمَ حسابي بمنشورات أخرى. وحينها قمت بإخراج ثيابي كلها من خزانة الملابس وشرعت أصور كل قطعة منها، حيث إن خزانة ملابسي كبيرة لدرجة أنه بإمكانها إثارة غيرة عارضة أزياء. وقد قررتُ اعتماد استراتيجية الاستمرار بحيث أنشر بمُعدل صورة كل يوم، بهدف أن أظل

موجودة وهناك من ينتظرني، وأن أخلق الاحتياج وأغذي النقص عندهم. وقد وصلني طرد ذات يوم من إحدى العلامات التجارية للملابس، وبداخله بلوزة ورسالة بسيطة تمنَّتْ فيها تلك الشركة أن تناسب ذوقي. فالتقطتُ صورة لي وأنا أرتدي هذا المُنْتَج بينما أتمدد فوق أريكة الصالون الخاص بنا ممسكة لكتاب في لا مبالاة وأضع نظارات شمسية فوق رأسي لترفع شعري، ومرة أخرى فقد حَطَّمَت مشاهدة تلك الصورة أرقامًا قياسية ومذ ذاك الحين وساعي البريد يكرهني؛ لأنه يقرع جرس بابي كل يوم ويسلمني طرودًا جديدة إلى درجة أنني صرت لا أعلم ماذا أفعل بها.

وفي مرة منهم وصلني حذاء بكعب عالٍ من تصميم لوبوتان، وقد كان الحذاء جميلًا إلى حد ما، حتى إن أغلب صديقاتي كن سيحببن انتعاله، لكنه لم يكن مناسبًا لذوقي. وهنا راودتني فكرة التقاط صورة له أمام صندوق القمامة خاصتي، ثم نشرتُ الصورة وأنا أقول إنه لن يكون بوسع المُصَنِّعِينَ أن يشتروا خدماتي أبدًا، وقد خلقتُ الصورة ضجّة على الفور وتجاوزتُ ثلاثين ألف إعجاب، إذ إنني انتقلت من مستشارة أزياء إلى مركز ناقدةٍ حازمة بسبب تلك الصورة، وأدركت أن رواد مواقع الإنترنت لا يحبون المديح فالتزمتُ بهذا المسار بلا تحفظ ولا اعتدال. حتى إنني في بعض الأحيان كنت أقوم بالتقاط صورة لفتاة ترتدي زيًّا سيئًا أو فتاة لا أحبها ثم أجعلها أضحوكة على الإنترنت، حتى صار الناس يخشونني وأنا أعشق هذا.

أعرف ما ستقولونه لي، ستقولون إن سلوكي ليس رائعًا جدًّا كما أظن، ولكن رؤية رفاقي وهم خاضعون لي لهذه الدرجة كانت تجَدِّدُ حيويَّتي في كل مرة.

لقد أصبحتُ أيقونة على شبكات التواصل الاجتماعي.

* * *

أحتفل اليوم بعيد ميلادي رفقة أمي وآرثر أخي غير الشقيق في مطعم راقٍ بوَسط المدينة، فبعد انفصالها عن أبي تعرفت إلى رجالٍ كثر والذين كانوا ودودين معي بدورهم، كما كان البعض منهم يشعرون بالحرجِ كوني أشهدُ على علاقاتها العابرة تلك. أما أمي فلم تكترث مطلقًا بما قد أشعر به، فهي لا تفكر سوى في نفسها وأنا لا أُبْدِي مشاعري على الرغم من أنني أعاني بسبب رؤيتها مع رجال آخرين غير أبي.

وقد كنت أمتلك أملًا سريًّا في احتمالية أن يعودا إلى بعضهما حتى جاء اليوم الذي أخبرتني فيه أمي بشكل مفاجئ أنها حامل، دون أن تخبرني بهوية الأب الذي أظن أنها لا تكترث لأمره حتى، وإنما كانت تتقبل الموضوع بصدر رحب وهي تضع أسطوانة لأغنية قديمة لغولدمان[1] تعود إلى ثمانينيات القرن الماضي في مُشَغِّلِ الأسطوانات بشقتنا مرارًا وتكرارًا، لدرجة أنني لم أعد أتحمل الاستماع إليها.

على أية حال، فقد جاء آرثر إلى الحياة وجلبت له فتاة شابة للاعتناء به، والتي كانت فتاة أمريكية تُدعى ماتيلد وبفضلها صرتُ أتحدث لغتين تقريبًا، أما أمي فلم تتوقف فعليًّا عن العمل سواء في خلال حملها أو بعد ولادتها. كما أنه من الواضح أن الجميع يخشونها في مجال الأعمال، وقد اكتشفتُ على جوجل أن زملاءها المحامين يطلقون عليها لقب «بيتبول» حيث إنها لا تفكر في شيء سوى المال وجني المزيد منه، كما لو كانت في سباق ليس في نهايته سوى فائز واحد، لكني لم يكن ليس بوسعي أن ألومها لأنني أشبهها! فقد ورثتُ كل صفاتها، وخاصة رغبتي في أن أكون الأفضل حتى لو لزمني ذلك أن أسحق الآخرين كي أنجح.

وفي هذا اليوم وبعدما وضع النادل أمامنا قالب حلوى تعلوه سبع عشرة شمعة، مَرَّرَتْ لي أمي ظرفًا فوق الطاولة حيث لم تكن الهدية مفاجأة بالنسبة إليَّ؛ لأنها عبارة عن حفنة أوراق مالية معتادة من فئة خمسين يورو داخل الظرف بينما تنظر إليَّ آسفةً، وهي تقول:

لم أعد أعرف ماذا أهديك مع كل تلك الثياب التي تستقبلينها.

لكن الحقيقة أنها لا تملك الوقت لتنشغل باختيار هدية لي.. فأتمالك نفسي وأعانقها شاكرة إياها. أما آرثر فعلى الرغم من أنه لا يتجاوز الاثني عشر

عامًا، فإنه أهداني تي شيرت عليه إشارة بذيئة مما سبب الانزعاج لأمي، لكنها ليست من النوع الذي يثير ضجة في مكان عام.

فقلت له:

أتعرف ماذا؟ سألتقط لنفسي صورة وأنا أرتديه وأنشرها على مواقع التواصل بهدف تقديم نوع من الدعاية لك.

ليبتسم أخي الصغير بينما أشعر بأنه يرغب في أن يحذو حذوي بل إنني متأكدة من ذلك.

يبدو أن هذه السنة هي سنة الأظرفة. ففي نفس المساء طلب مني أبي أن ألتقيه في الفندق الذي يقيم فيه حيث إنه يمكث في مدينتنا لبعض الوقت، فنظرًا لأنه الرئيس الثري لشركة ألمانية تُطَوِّرُ مشاريع لحساب شركة «إيرباص»، فإنه يركب الطائرة باستمرار مثلما أركب الحافلة، وغالبًا ما تكون لقاءاتنا وجيزة، إلا عندما يمنح نفسه إجازة لمدة خمسة عشر يومًا في خلال شهر أغسطس، ويبدأ حينها في تحقيق رغباته سواء رحلات سفاري في إفريقيا، استئجار يخت فخم بِطَاقمه، خوض مغامرة الغوص داخل قفص وسط حيتان القرش البيضاء الكبيرة.

إنني أعشق طريقته في الاستمتاع بالحياة، لكنني لا أطيق شريكته التي تبدو في عمر أختي الكبرى حيث إنها في الثامنة والعشرين من عمرها في حين أن والدي في السابعة والخمسين، وهو فخور بفكرة أن تكون بجواره امرأة مثيرة ومستمتعة بتلك الرفاهية، وكأن بينهما علاقة تكافلية لكنها تُشعرني بالقلق حيث إنني أخشى اللحظة التي سيصرح لي فيها بأن هذه الاستغلالية تنتظر منه مولودًا بدورها. فإنني أملك إحساسًا مُبْهَمًا بأنها تسرق أبي مني وتُقصيني من حياته، ولهذا فإن لقاءاتي الخاطفة معه أنا وهو فقط لها أهمية كبيرة أكثر من كل شيء آخر، على رغم أنه لا يفهم نشاطي كشخصية مُؤثرة على شبكة الإنترنت لأن أمر كهذا غير مدرج في قاموسه وإنما يهمه نتائجي الدراسية فحسب. وأنا لست تلميذة فاشلة فأنا أحصل على علامات وتقييمات مُرْضِيَةٍ، ولكن لديَّ انطباع دائم بأنني لستُ في مستوى تطلعاته وأنني لا أرضيه أبدًا. وإن كان يحلم بأن يراني ألتحق بأحد المعاهد المرموقة فأنا لست متأكدة بشأن هذا المستقبل.

ومرة أخرى فيَ مَشْهَدٍ متكرر يقوم النادل بوضع قالب حلوى تعلوه سبع عشرة شمعة فوق الطاولة، في حين يقوم أبي بوضع ظرف في صحني فأبتسم، وأُخَمِّنُ أنها حفنة أخرى من النقود كفيلة بأن تجعلني قادرة على تنظيم حفلة في منزله ذي الطراز المعماري الحديث على ضفاف نهر غارون،

والذي يسمح لي باستخدامه كما يحلو لي لأنه لا يزوره سوى في مناسبات نادرة جدًّا كما أنه يُفَضِّلُ خدمات فندق خمس نجوم على الإقامة به، وأنا أنتهز تلك الفرصة لأعيد إحياء المكان. فكل تلاميذ الثانوية بهذه المدينة يحلمون بالمشاركة في إحدى أمسياتي لكنني أقوم بتصفية الدعوات واستبعاد البعض منهم على مهلٍ، وأستغل نفوذي لأنني أحب أن أجعل الآخرين يتوسلون إليَّ.

عليَّ أن أعترف بأنني أقيم حفلات على مستوى عالٍ، إذ إنني أستأجر خدمة «دي جي»، وكذلك طاقم عمل لتقديم مأدبة الطعام والمشروبات التي أبتاعها من متعهد حفلات باهظ التكلفة، ثم أترك إلزا تتكفل بالباقي كعادتها. وبعدها، يصير كل شيء مسموحًا به حيث يصير حوض السباحة متاحًا لكل أشكال الجنون، كما أنه هنالك قارب صغير بمُحرّك يسمح بالذهاب إلى وسط نهر غارون، إضافة إلى غرف المنزل العديدة التي تصبح تحت تصرف أي ثنائي على علاقة غرامية وطاولة بلياردو وكذلك طاولة بوكر.

أما أنا فأكون ملكة الليل التي يحتشد حولها أكثر الشبان وسامة وليس عليَّ سوى أن أختار من بينهم، وهذا تحديدًا ما كنت أفكر به أمام هذا الظرف الجديد الموضوع في صحني من طرف أبي. لكني أفتحه بِحِرص.

لأفاجأ بأنه لا يحتوي على نقود ولا حتى صَكٍّ بنكي.

وإنما تذاكر طيران، رحلة إلى مكان مجهول يُدعى جزيرة السيدة إليوت.

***

ستُّ التذاكر؟

هكذا سألت أبي قبل أن يفرك يده من الضجر، وهو يقول: عزيزتي، ليس بإمكاننا الذهاب معًا هذا العام، فأنا أعمل على مشروع ضخم جدًّا سيجعلني منشغلًا في خلال عطلتك الدراسية.

ثم يتحاشى النظر إلى عيني، لأنه يعرف أهمية تلك اللحظات النادرة التي نتشاركها معًا بالنسبة إليَّ

ثم يقول:

وقد قلتُ لنفسي في نهاية المطاف إنه باستطاعتك الذهاب رفقة أصدقائك.

فتدور فكرة عدم وجود أبي في رأسي وأشعر كم أنها فكرة مثيرة.

إن جزيرة الليدي إليوت، هي جزيرة صغيرة تقع بشرق أستراليا ويَحُدُّهَا سياج الشعب المرجانية،، ثم يضيف قائلًا: إنه منتجع صديق للبيئة، أو فندق في قلب الطبيعة نوعًا ما، لكنه في موقع مَحْمِيٍّ وسيكون بمنزلة تغيير كامل لك.

ويتابع سرد التفاصيل لكنني لم أعد أسمعه. حيث صار سؤال واحد هو ما يدور في ذهني: من سيكونون ضيوفي الخمسة؟

وسرعان ما عدت إلى منزل أمي بعد تلك الوجبة، لأفتح الحاسوب وأشرع في البحث عن هذه الجزيرة الخاصة، والتي على ما يبدو فهي محمية للطيور والأحياء البحرية. وهأنا أتخيلني سابحة مع سمك المانتا راي[2] أو السلاحف البحرية، إذ بدأت أبحث عن تفاصيل حول ظروف

الحياة هناك وعن أماكن الملاهي الليلية، خدمة الواي فاي، المتاجر المتوفرة، وعلى الرغم من أنني لا أعثر على أية معلومة. فإنه لا يجب عليَّ أن أستسلم هكذا سريعًا: فالرحلات مُخصصة للمفاجآت والاكتشاف. ولهذا فقد واصلت البحث حتى عثرت على موقع متخصص في علم الطبيعة، والذي يذكر أنواع الكائنات الحية التي تعيش على الأراضي الأسترالية، لأكتشف أن هذا البلد يضم الحيوانات الأكثر خطورة في كوكبنا حيث حشرات القُراد العملاقة، العلقات الطفيلية، العناكب، الثعابين، دون أن ننسى ما يعيشون في مياه المحيط الهادي سواء القرش الأبيض، أو القرش النمر، أو الحوت القاتل،

وكذلك سمك الراي اللاسع، إضافة إلى قنديل البحر ميدوزا، وسمك الحَجَرِ السام وتمساح المياه المالحة.

وهأنا الفتاة التي تتحقق كل مساء مما يوجد أسفل فراشها وداخل خزانة ملابسها لترى إذا ما كان هنالك ثمة عنكبوت صغير يختبئ بها، لا أدري كيف سأتمكن من التحكم في مخاوفي. وبطبيعة الحال في اليوم الثاني مباشرة، كانت ماري هي أول مدعوة حيث جعلتها فكرة السفر تقفز فرحًا وشرعت تبحث على الإنترنت عن كل ما هو جديد فيما يتعلق بملابس السباحة والقبعات والنظارات الشمسية.

أما أنا فأُقَطِّبُ جبيني كالعادة أمام كل مُنْتَجٍ تُريني إياه، حيث إن انعدام ذوقها يثير استيائي وبينما نحن ممددتان على سريري، نعود إلى السؤال الأساسي: من سنأخذ معنا من أصدقائنا في هذه الرحلة؟

فتقترح ماري قائلة: إلزا؟

لكنني أمتعض لأن مغامرة من هذا النوع من الممكن أن تكون ناجحة أو أن تنقلب إلى كارثة، لذا ينبغي أن نقوم بالاختيارات الصحيحة، فأجيبها: أحب مانون.

تقول ماري:

هذه الحقيرة ستغطي على وجودك، لأن أعين كل الشبان ستكون موجهة إليها.

وهنا أعلم أن ملاحظتها صائبة، فمنذ أن كانت مانون في الخامسة عشرة من عمرها وهي تقوم بعَرض الأزياء، إنها فتاة جميلة، بل جميلة جدًّا، ولهذا أشطب اسمها من اللائحة التي أعددناها وأقول: إلزا سَتَفِي بالغرض.

تهز ماري رأسها بعدما اتفقنا على الحد من المنافسة، فأضيف: إذًا نحن ثلاث فتيات، يلزمنا أن نعدل الكفة بوجود فتى معنا.

بيير! لم أرَ فتى راقيًا مثله.

إنه هادئ للغاية.. أذكِّرُكِ بأننا سنتوجه إلى جزيرة.

فليكن كيفين! إنه مَرِحٌ ولطيف مع الجميع، وهذا سيكون جيدًا من أجل تجانس مجموعتنا.

أنا آسفة، لكنه ليس نوعي المفضَّل، إنه سريع الغضب، كما أن كاميل أخبرتني بأنه ساذج إلى درجة كبيرة.

إنني أعثر دائمًا على عيب ما في الفتيان الذين تقترحهم عليَّ ماري، لأنه لديَّ اسم آخر في رأسي مسبقًا: وأنطوان؟

تبتسم ماري:

أنت تحبينه.

ما الذي تتحدثين عنه! إنه مجرد فتى رائع، على رغم كونه لا يهتم كثيرًا بدراسته، مما جعله يعيد سنة تخرجه.

إنه يقضي وقته في الصالات الرياضية، بينما يقول البعض إنه يتناول عقاقيرَ ومُكَمِّلاتٍ غذائية ليتخلص من الدهون ويُقَوِّي عضلاته، لكنه قبل اعتماده هذا النظام لم يكن سوى فتى ضئيل دون جاذبية تُذكر.

لا أعلم إذا ما كان كل هذا صحيحًا، لكنه يملك جسدًا مثاليًّا.

إن لقائي الأول مع أنطوان كان مُقَدَّرًا له أن يحدث، إذ إنه كان معجبًا ببنطلوني الجينز الضيق الذي ابتعته من ماركة إيطالية عبر الإنترنت في لحظة تهور، في حين أنني أُعجِبت بستايله الرياضي. ثم جلسنا لنحتسي مشروبًا، وكانت ابتساماته الجذابة تجعل عينيَّ تلمعان، وعرفنا أننا نحب نفس الماركات ونشاهد نفس برامج تلفزة الواقع[3]. التقطنا ما يناهز ثلاثين صورة سيلفي معًا، ثم شاركناها على حسابينا على الفيسبوك، وسمحتُ له بتقبيلي في نهاية الأمسية، وعلى رغم أنه كان يتمنى أن تأخذ علاقتنا منحًى جديًّا، فإنني لم أكن مستعدة.

لقد اتخذت قراري ولهذا أحيطُ اسم أنطوان بدائرة في لائحتي دون أن أطلب موافقة ماري التي تبتسم وهي ترسم قلبًا بيديها ساخرة مني، فأُغَيِّرُ الموضوع: ما زال هناك مكانان شاغران.

نفكر لعدة دقائق، قبل أن تُعَلِّقَ ماري بنظرة ذات معنى: يبدو لي أن إضافة فتى ثانٍ أمر طبيعي كي نتجنب المشاحنات.

وماذا عن فتاة أخرى؟

لا أدري، ربما أرميل ملكة الأخبار الزائفة؟

أهز رأسي رافضة، تقول:

لولي؟

مستحيل، منذ مشاركتها في مسابقة غنائية من مسابقات تلفزة الواقع حيث خسرتْ في النهائي، وهي تظن نفسها نجمة، وأنا لا أرغب في أن تَحْجبَ الأضواء عني في منشوراتي.

إذًا جاد؟ إنها بطلة تنس ورياضية لا تُهزم في لعبة «بير بونغ»، وهي لن تغطي على بريقك.

لا، لا.

ماذا هناك؟

أبتسم في سرور، وكأنني حظيتُ بلحظة إلهام، ثم أقول: ماري، أعتقد أنني وجدت فكرة رائعة.

يالها من فكرة جنونية!

لم تتفهم ماري الفكرة من الوهلة الأولى حيث أصابها الغضب لدرجة أن وجنتاها صارتا حمراوين، ودمعت عيناها واحتدت نبرة صوتها العالية، يبدو أن فكرتي تخيفها إلى هذا الحد.

هل تستوعبين أنك تخاطرين بأن تمنحي فرصة الفوز لأي شخص غريب! تخيلي نفسك في الطائرة بجانب بول بوجهه المغطى بِحَبِّ الشباب المُنَفِّرِ، أو بالقرب من جوليان الذي يصيبنا بالملل من ألعابه الإلكترونية، هل تتصورينا جالستين بلباس البحر إلى جانب إيريس، هل ستنشرين صورة لنا تجمعنا في الغروب مع هذه الفتاة الشبيهة بحُوت ضخم؟

لكن ماري ليست مخطئة فيما تقول.. فهذه الاحتمالات لا تعجبني أبدًا، ولكنني أعرف ما هي الفوائد التي ستعود عليَّ من هذه المسابقة.

لقد اتخذتُ قراري! سأستعمل حسابي على الإنستغرام لأنظم مسابقة يفوز فيها شخصان بالمقعدين المتبقيين، سأصنع حدث السنة بفضل هذه الرحلة التي ستأخذنا إلى آخر بقعة في العالم يا ماري، هل تدركين ذلك؟!

هذا مؤكد، فالخبر سينتشر كالنار في الهشيم، وعما قريب سيصير حسابك هو الأكثر زيارة في المدينة كلها.

بالضبط، وجمهوري سيجذب ماركات جديدة، وإعلاناتي ستجلب لي المال.. مما سَيُمَكِّنُنِي من بلوغ استقلالي المادي.

ولكنك تجازفين بالذهاب في عطلة مع غريبين، من يدري أنهما لن يفسدا سفر الأحلام هذا.

لا يهم، إنني أعتزم الاستفادة من هذه الرحلة، ولذلك لن أُفَوِّتَ فرصة مماثلة.

يلزمني كي أكسب الرهان أن أعثر على لعبة معقدة خصوصًا لمتابعي حسابي، مما سيسمح بإقصاء أولئك الذين ليسوا بمتابعين أوفياء، والذين ستغريهم فكرة المشاركة في اللعبة، تمامًا كأولئك المتطفلين الذين يحاولون

تسلق السياج الحديدي لمنزلي، ليلتهموا الأكل ويحتسوا المشروبات في أمسياتي الخاصة.

سأقوم بطرح سؤال كل يوم على إنستغرام، ومجموع الأجوبة الصحيحة هو ما سَيُخَوِّلُ للمتسابقين المرور إلى السؤال النهائي الذي يعتمد على سرعة الإجابة، وأسرع مُتَسَابِقَيْنِ يتوصلان إلى الإجابة الصحيحة سيكونان ضيفيَّ على جزيرة السيدة إليوت. وبهذا النظام سيضمن لحسابي زيارات ثابتة وضَجَّةً مستمرة.

أمضي الليالي التي تَلَتْ قراري في وضع اللمسات الأخيرة على مجموع أسئلتي، إن بعض الأجوبة تستلزم التنقل إلى وسط المدينة، مما سيُقصي المشاركين المنحدرين من مناطق أو بلدان أخرى.. لقد عَرَّجْتُ لأبتاع دليلًا للأماكن الغريبة بتولوز.. كي أستغل الفرصة لاكتشاف مدينتي، وأتأمل ساعة أثرية بها قاعدةُ أرقام تشير إلى أربعة وعشرين ساعة بدلًا من اثنتي عشرة، بينما ألاحظ أن مشرحة قديمة قد تحولت إلى مقهى صغير، أو أتوقف طويلًا أمام تمثال العذراء السوداء الذي يزين واجهة إحدى الكنائس.. وأضيف هذه الأمكنة إلى أسئلة حول مجالي، وأخرى تتعلق بالعلامات التجارية، العطور الشهيرة، والممثلات.. أسئلة من شأنها أن تثير اهتمام جمهوري وتستهدف الرابحيْنِ المحتمليْنِ.

أنا لن أقوم بتجارب أداء، ولكنني لا أرغب في أن أجد نفسي مع رفاق سفر غير منسجمين معي، ولا يقاسمونني شغفي بالموضة، أو لا يملكون سوى حساب وحيد لا قيمة له على شبكات التواصل الاجتماعي..

يفصلنا الآن خمسة عشر يومًا على بدء المسابقة، وقد أعلنتُ قراري للتو على إنستغرام بإهداء رحلتين إلى جزيرة السيدة إليوت.. حيث تتدفق العديد من الرسائل على حسابي، ويسألني البعض عما إذا كانت هذه اللعبة مزيفة، كجواب أقوم بنشر صورة لبطاقات السفر إضافة إلى صور الجزيرة التي سبق ووجدتُها على الإنترنت.

إن الافتتان الذي أثارته هذه اللعبة يفوق كل توقعاتي.

يا له من جنون خالص!

ففي كل يوم تحطم صفحتي أرقامًا قياسية في عدد الزيارات، ولم يعد بإمكاني أن أخطو خطوة واحدة سواء في الثانوية التي أدرس بها أو في المدينة ككل، دون أن يقوم أحدهم بإيقافي ليطرح عليَّ أسئلة تخص المسابقة.

تخبرني إلزا عبر الهاتف:

ثمة مقال عنك في الجريدة!

أسارع لتحميل المقال عبر تطبيقي، يصف الصحفي حالة الإثارة التي أصابت شباب تولوز، لكنه قاسٍ في حديثه إذ يتحدث عن ابنة عائلة ثرية ترغب في إثارة الجدل، كما يشكك في نياتي ويحاول أن يتوصل إلى الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذه الهدية، ويُدْرِجُ مُلحقًا يضم حوارات مع عدد من المارة الذين يصرحون برغبتهم في أن يجربوا حظهم.

تقول أمي:

لا يمكن أن يستمر هذا يا كلارا، كان عليَّ أن أتدخل في وقت سابق.

ولكن يا أمي، إن الجميع يتحدثون عني، وهذا نجاح رائع بالنسبة إليَّ!

أنت تمزحين! فلتتخيلي أن يكسب منحرف أو سجين سابق إحدى التذكرتين.

أبتسم بغباء كوني لا أملك جوابًا، لقد جُنَّ جنون أمي، وهي على حق.

ولكي تضع أمي حد للتدفق الكبير للمشاركين، تقرر وضع قواعد للمسابقة، وتُودِعُها لدى مُفَوَّضٍ قضائي صديق، حتى تكون المسابقة متاحة فقط لتلاميذ السنة الثانية من الثانوية من كل الشَّعَبِ الدراسية، والذين يدرسون في مؤسسات تولوز.

يمر الوقت، بينما يُهَيَّأُ لي أن ارتداء النظارات يريح عيني في بعض الأحيان، ولكن ذاك النور عندما يعود فإنه يعوق رؤيتي تمامًا.. وما إن اتمكن من النوم بهدوء في بعض الليالي حتى تعود الكوابيس لتؤرقني وتجعل نومي يضطرب من جديد.. كما أن مزاجي صار يتأرجح بين الفرح والكآبة، بين الانشراح والانتكاس. في حين أن الحماسة تزداد على الإنستغرام إلى أن يحل اليوم الموعود، وعلى الساعة السابعة صباحًا يظهر على صفحتي السؤال الأول:

«استلهمْ من مكان أحب فيه تأمل الفساتين بشارع سان رومان كي تعثر على الأغنية ذات اللازمة الغنائية التي تعني اللون الأزرق».

سيتم اجتياح هذا الشارع التجاري من طرف التلاميذ الباحثين عن دليل ما، ومن خلال تصفح منشوراتي سيكون بإمكان اللاعبين أن يروا صورة لي وأنا

أرتدي فستانًا من علامة «أونج» اشتريتُه في شهر سبتمبر الماضي من متجر بهذا الشارع، وبالاستعانة بتعبير: «اللازمة الغنائية»، وكذا بالقليل من الحدس سيربطون بين سؤالي وبين المغنية «أنجيل» التي تحتكر المحطات الإذاعية، أما بالنسبة إلى كلمتيْ: اللون الأزرق فهما إشارة للون عيني، ومن ثمَّ فإن الإجابة عن سؤالي هذا هي عنوان إحدى أشهر أغاني أنجيل: «أريد عينيك». أعترف بإن الإجابة صعبة المنال شيئًا ما، ولذلك فإن أولئك الذين يعرفون عالمي الخاص جيدًا هم الوحيدون الذين سيتمكنون من الإجابة.

كل يوم أنشر لغزًا جديدًا، وألغازي تتسبب في ازدحام بالأماكن التي أشير إليها وكذا في فيضٍ من التعليقات على منشوراتي، ثمة إجابات متداولة، أحيانًا تكون صحيحة وأحيانًا خاطئة، وأنا لا يهمني ذلك مطلقًا ما دام حسابي يحقق نسبة زيارات خيالية!

في خلال هذا الأسبوع الجنوني، وَقَّعْتُ أربعة عقود إعلانية، إنني أسير على خطى والديَّ قبل أن أتخرج من الثانوية.

وصلتني رسالة نصيّة من أبي، أقرأ فيها:

«نظرًا لنتائجك الدراسية، ما زال بإمكاني إلغاءُ رحلتك».

أشعر بالخوف. إن والدي يتابع نتائجي عبر موقع الثانوية حيث بإمكان الآباء الاطلاع على درجات أبنائهم، ولهذا يجب عليَّ أن أكون حذرة، لأن معدلاتي تراجعت وبدأ الأساتذة في توجيه ملاحظاتهم لي، إنهم يطلبون مني الانتباه أكثر، ويُدَوِّنونَ لي ملحوظات تثير استيائي، مثل ملحوظة أستاذ مادة الرياضيات: «لقد فقدتِ تركيزكِ بالكامل، هل سبقك عقلكِ إلى جزيرتك الفردوسية؟».

ينبغي أن أتصرف.. ولهذا أخصص يوم الأربعاء لمراجعة دروسي في المكتبة عساني أنجح في تحقيق النتائج المرجوَّة مني حيث أدرك أن والديَّ لا يهتمان بفكرة مسابقتي، ولا يعني لهما نشاطي ونجاحي على الإنستغرام شيئًا، أما في ممرَّات الثانوية وأيضًا في محيطها، ألاحظ أن نظرات الآخرين لي قد تغيرت، فإذا كنتُ في السابق محبوبة ومحسودة، فإنني أستشعر الآن الكراهية، إنهم يغارون مني وينتقدونني في غيبتي، لكن لا أحد منهم يجرؤ على إعلان كراهيته لي وجهًا لوجه، وهذه نقطة قوة بالنسبة إليَّ تمنحني إحساسًا ممتعًا.

بالتفوق على الآخرين، أما بالنسبة إلى صديقاتي فإنهن تابعات خاضعات لي يهززن رؤوسهن موافقات على أبسط قراراتي، ولهذا يمكنني القول إنني

لا أعاني من المعارضة، مما يجعلني أتساءل عمَّا إذا ما كان يجب عليَّ في المستقبل أن أدخل عالم السياسة، مستفيدة من تجربتي هاته، وحينها ربما سيصير والدي فخورًا بي.

صديقتاي ماري وإلزا مستاءتان وأنا أعرف السبب! لقد رفضتُ أن تشاركاني في إعداد اللعبة لأنني لا أريد أية تسريبات لأن الآخرين يتوددون إليهما أيضًا، وأنا لا أستطيع أن أُقَيِّمَ قدرتهما على مقاومة الضغط.. على أية حال، لن تغامر أيٌّ منهما بتعريض علاقتنا للخطر، إذ إنني متيقنة من أنهما لا تنويان إثارة خصومة معي.

وبهدف توطيد علاقتنا فقد قمت بدعوتهما لتكونا برفقتي وأنا أضع السؤال النهائي، حيث التقينا في مقهى «عند مارسيل» الذي يرتاده تلاميذ الثانوية، أقصد أولئك الذين لديهم قدرة مادية على ارتياده كَوْنَ المشروبات التي يقدمونها فيه غالية نسبيًّا، وهو ما يرجع إلى رغبة مالكيه في اختيار مرتاديه كي لا تتم مضايقة زبنائهم المعتادين.

قمنا بطلب عصير الخوخ، وفي الساعة الثانية عشرة ظهرًا بالضبط نشرتُ سؤالي الأخير، وما إن أخذتُ الرشفة الأولى من مشروبي حتى ظهرتْ أول إجابة صحيحة.

صاحت إلزا متعجبة:

هذا لا يُصَدَّقُ!

أما ماري فقد وجَّهتْ إليَّ اللوم بقولها:

إن سؤالك سهل للغاية!

لحُسن الحظ أن الإجابات التالية كلها خاطئة، مما جعلني أشعر بالاطمئنان، فقد كان المتسابقون يتسرعون في الإجابة ولهذا يخطئون. حتى مرّت خمس عشرة دقيقة قبل أن يظهر جواب الفائز الثاني على الشاشة، لأُعْلِنَ انتهاء المسابقة بعد تحققي من اسمَي الفائزَيْن.

أقول لصديقتيَّ:

المحظوظان هما: «مولاسون ٣١» و«بلاك بيرد»، سأبعث لهما رسالتين لأعرف هويتهما وأرسل لهما تفاصيل الرحلة.

تصفق إلزا بحماس، وتقول:

لقد صرنا الآن ستة أشخاص وعما قريب سنتعرف على الفائزيْن اللذين سيرافقاننا في رحلتنا حول العالم.

* * *

إن أمي تشعر بالقلق لأن حالة عينيَّ لا تزال مستمرة، الأمر الذي يتطلب الخضوع لفحوصات إضافية، ولهذا فإننا نقصد اختصاصي طب العيون مجددًا كي يفحص عيني مرة أخرى، ويُجْرِي لي سلسلة من اختبارات فحص النظر حيث يحرك مصباحه من اليسار إلَى اليمين ومن الأسفل إلى الأعلى ولكنَّ عينيَّ تجدان صعوبة في تتبع تلك الحركات، بل إن بعضها يُسبب لي الألم. فيقوم الاختصاصي بتدوين ملاحظات حول كل الصعوبات التي ألاقيها. بينما أحاول التقليل من انزعاجي خوفًا من أن تقوم أمي بمُهاتفة أبي لتطلب منه إلغاء رحلتي إلى جزيرة السيدة إليوت..

يسألني الطبيب:

هل تفرطين في استخدام الهاتف والحاسوب؟

لتسبقني أمي وتجيبه:

إنها تستخدم تلك طوال الوقت! فهي مدمنة على الحاسوب، كما أنها تبدو كأنها تحت تأثير التنويم المغناطيسي حين تمسك هاتفها المحمول.

أعترض على ما تقول:

لا أستخدم هذه الأجهزة أكثر مما يفعل أصدقائي.

لتقول أمي:

دكتور، هل تعرف ال «إيسمار»؟

في حين أن الطبيب يجهل هذا المصطلح المختصر تمامًا، ولهذا فإن أمي تلتفت إليَّ كي أشرح له ما تعنيه هذه الكلمة.

إنها تعني: «استجابة القنوات الحسية الذاتية»..

وقبل أن أوضح أكثر، تتابع أمي قائلة:

إن الأمر يتعلق بفيديوهات قصيرة تعرض مشاهد مكررة حيث من المفترض أن يجعلك الصوت الذي يرافقها تنام، على سبيل المثال صوت نَقْرِ

الأصابع على الطاولة، صوت فرك فرشاة أسنان لحذاء، أو صوت فتح مظلة..

إن فضولي هو ما جعلني أشاهد هذه الفيديوهات التي يكاد بعضها يقتلني ضحكًا، كذلك المقطع الذي تظهر فيه امرأة تتذوق الخيار المخلل لدقائق طويلة.. ومن فرط مشاهدتي لهذه المقاطع عندما يصيبني الملل، أعترف بأنني اعتدتُ على مشاهدتها قبل النوم لتساعدني على طرد الأفكار المزعجة من ذهني.

تُعَلِّقُ أمي:

كنت سأُفَضِّلُ أن تقرأ ابنتي كتابًا يا دكتور، أو أن نتشارك آراءنا حول الروايات، ولكن القراءة لا تدخل في دائرة اهتماماتها، كما أنها لا تمارس الرياضة لأنها لا تحب بذل أي مجهود بدني.

إن أمي تعشق الشكوى مني لأي شخص تصادفه، وعلى رغم أنني أكره سماعها وهي تَسْرُدُ لائحة عيوبي أمام الجميع فإنها تضيف:

من المؤكد أنها تحب الاسترخاء على أرجوحة، أو الاستلقاء على أريكة أو القيام بالتسوق صحبة صديقاتها، فإنا لم أعد أعرف ماذا يمكنني أن أفعل كي أجعلها أكثر حيوية!

ولحُسن الحظ فإن الطبيب ينتهي من تدوين ملاحظاته، ثم يستنتج أنني أعاني من إجهاد في عينيَّ بسبب التعرض المفرط للأشعة الزرقاء، ويُبلغنا بأنه سيُحدد لنا موعدًا آخر.

ولكن فجأة يصبح صوت الطبيب أكثر عمقًا وبطئًا بشكل غريب وكأن أحدهم ضغط على زر «الإبطاء».. ثم يتردد صدى كلماته في رأسي وكأنني أسمع تراتيل في الكنيسة.. كما أنه يحدق إليَّ حتى ألاحظ أن الريش يحل محل شعره.. وأحس بجسدي وهو يتصلب حتى ألتصق بالكرسي.. ماذا يجري؟ لقد تحول أنف الطبيب إلى منقار أما ذراعاه فقد صارتا جناحين، ويتأملني الآن وهو في هيئة طائر، يقول:

تعالي إليَّ!

يرعبني هذا الصوت العميق الذي يُحدثني إلى درجة أنني أعجز عن تحريك رأسي.. كما لم أعد أعلم أين أمي.. فيكرر كلماته:

إنني أنتظرك يا كلارا، تعالي إليَّ!

إن هذا الكائن يعرف اسمي ويخاطبني به..

أشعر بأن أحدهم يهزني.. وكأن هنالك اضطرابًا في ذهني..

عزيزتي، هل تسمعيننا؟ أجيبي!

أجل، أجل، ماذا يحدث؟

أدرك أن الطبيب قد استعاد هيئته الأصلية، بينما يبدو على والدتي الهلع وهي تسألني:

ماذا أصابك؟ لقد كان يبدو عليك الذهول.

لا أعلم، إنه التعب على الأرجح..

لا أظن أنه من الضروري أن أحكي لهما ما رأيته بينما أتساءل بيني وبين نفسي إذا ما كنت قد فقدت عقلي.

وعلى إثر ما حدث يقول الطبيب:

حسنًا، سأطلب منك إجراء فحص للدماغ بالأشعة المقطعية، هكذا سنتأكد على الأقل مما لو كانت حالتك العامة جيدة، وفي حالة لم نكتشف شيئًا يدعو للقلق سأراك مجددًا بعد ستة أشهر.

أحاول نسيان هلوستي وأنا أفكر في أنه إذا ما استمرتْ كوابيسي هكذا فإنني سأصبح مجنونة لا محالة..

ذهبتُ بعدها رفقة إلزا وماري لنلتقي الفائز الأول في مسابقتي والذي يُدعى «مولاسون ٣١»، أو بالأحرى «جول»، وهو فتى يدرس بثانوية تولوز-لوتريك، ويرتدي بذلة رياضية غير متناسقة من ماركة غير مشهورة خاصةٍ بالطبقة الكادحة، إضافة إلى أنها تبيع ملابس مستعملة، فتمنيت حينها أن تكون ملابسه الصيفية أقل سوءًا كي لا يُفسد صور الرحلة، إذ إنني أرغب في أن أشارك صورنا على حسابي على الإنستغرام، ليتسنى لمن يتابعونني رؤية ما نقوم به في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية لحظة بلحظة.

لم يكن حديث ضيفي مثيرًا حيث جعلني أتخيله وهو يمضي أيامه أمام ألعاب الفيديو أو يغفو وهو يشاهد إحدى مباريات كرة القدم، علاوة على أنه يبدو متحفظًا، ولهذا من الواضح أنه لن يكون الشخص الذي سيُضفي المرح على مجموعتنا.

تقول له إلزا:

أتقدم إليك بتهانيَّ الخالصة على أية حال.. أنا مندهشة من أنك تمكنت من الإجابة عن كل تلك الأسئلة الخاصة بالموضة على رغم كونك فتى!

إنني أفهم حذرها وشكوكها في حقيقة قدرته على الفوز بالمسابقة خاصة أنني أوافقها الرأي، لأنه من الجليِّ أنه منفصل تمامًا عن عالمنا.

أتظاهر بأنني مهتمة بالتعرف على حياته الخاصة لأعرف تفاصيل أكثر:

هل لديك أخوات قمن بمساعدتك في المسابقة؟

لا، فأنا طفل وحيد وأعيش مع أمي فقط.

لكن ماري ليست من النوع الذي يسمح للآخرين بخداعه، ولذلك فإنها تسأله بطريقة مباشرة:

لكن في هذه الحالة كيف تمكنت من الفوز؟

لا أعلم..

يظهر على جول الاضطراب بعدما حاصرناه بشُكوكنا، فيضيف:

كنتُ أرغب في الذهاب إلى هذه الرحلة بشدة، ولهذا... لقد استعنتُ بالإنترنت لأجيب عن الأسئلة.

لكن تفسيراته تظل غامضة وغير مُرْضِيَةٍ لنا خاصة أنه كان يقوم دومًا بتفادي النظر في أعيننا وهو يتحدث وكأننا نملك القدرة على قراءة أفكاره واكتشاف ما يخفيه علينا.

إن وجهه ليس بغريب عني، لديَّ انطباع بأننا سبق والتقينا، على رغم أن عالمينا مختلفان.. هيئته مُرتسمة في ذهني ككلمة أعرفها جيدًا فإنها سقطتْ من قاموسي.. أنا متأكدة من أننا نعرف بعضنا، ولكن ذاكرتي تخونني.

على عكس لقائنا الأول مع جُول، كان تعرفنا إلى الفائزة الثانية «بلاك بيرد» أو بالأحرى «إيناس» مفاجأة سارة. من المؤكد أنني ما كنت لأدعوها إلى أمسياتنا، ولكن هذه الفتاة جذابة، ومع ذلك هي تعرف حدودها جيدًا.

لم تظهر على جول أمارات السعادة لذهابه معنا في رحلتنا، بينما كانت «إيناس بونو» تكاد تطير فرحًا، لقد ابتاعت العديد من الأدلَّة السياحية،

واستقتْ معلومات حول حاجز الشعب المرجانية والأحياء البحرية الأسترالية، وهي أيضًا شغِفة بالسُّكان الأصليين لهذه القارَّة الذين كانوا أول من قام بإعمارها، في حين أنني وصديقتاي كنا مهتمات أكثر بالاستجمام المنتظَر، بأخذ حمَّام شمس قبالة البحر اللا زوردي، بتذوق الكوكتيلات التي يُقَدِّمُها الفندق، وإثارة غيرة المتابعين، هذه الأمور كافية بالنسبة إلينا، غير أن إيناس متعطشة للاكتشاف، أتمنى ألا يصير تعطشها هذا مع مرور الوقت متعبًا لنا، إذ إنني أحب أن أكون المسؤولة عن ضبط إيقاع المجموعة، لا أن أترك الآخرين يفرضون عليَّ إيقاعهم الخاص.

تمضي الأسابيع ونقترب رُويدًا رويدًا من العطلة، وأنا أبذل قصارى جهدي للحفاظ على مستوى جيد في علاماتي الدراسية.

الأشعة المقطعية التي خضعتُ لها لا تظهر أي تَلَفٍ في دماغي، وهذا يطمئنني على قواي العقلية، لأن هلوستي الأخيرة ما زالت تقلقني، لقد كان الطائر يبدو حقيقيًّا، إلى درجة أنه كان بإمكاني لمسه، وصوته يتردد داخل رأسي كأثَرٍ لا ينمحي، وما زلت عاجزة عن فهم معنى كلماته..

وأخيرًا انتهت الدراسة، مرحبًا بالعطلة! لقد دقَّت ساعات حزم حقائبنا التي تمتلأ بملابس البحر، النعال الخفيفة، الواقيات الشمسية.. دون أن ننسى طارد البعوض.

إنه اليوم الموعود!

هناك

6

لم تشرق الشمس بعد، وعلى ضوء أعمدة الإنارة نلمح نُدَفَ ثلج تتطاير في الهواء، لقد اتفقنا أن نلتقي في المطار أمام مصلحة فحص الأمتعة.

توجهتُ إلى المطار رفقة أمي، وكذلك وصلت كل من إلزا وماري رفقة والديهما، أما أنطوان فقد جاء وحده بعدما ركب الترام، ونفس الشيء بالنسبة إلى جُول، في حين أن إيناس أخبرتنا بأن والدها أوصلها إلى المدخل الرئيسي للمطار، ثم غادر بسرعة لأنه تأخر عن عمله في المستشفى حيث إنه يعمل مُسْعِفًا، ولم يتسنَّ له الوقت للتعرف إلينا ولا لتوديعها.

تتأكد أمي من أنني أحمل المستلزمات الضرورية للسفر: جواز السفر، البطاقة الائتمانية، تذاكر الرحلة.. وبعدها تطبع قبلة على خدي كَشَاهِدٍ وحيد على محبتها لي، فإننا لا نعبر عن حاجتنا العاطفية في عرف تلك العائلة.

تلتقط إلزا صورة لمجموعتنا، صورة لم تَحْظَ بإعجابي كونها تُظْهِرُ عدم انسجامنا مع بعضنا، لكنني أوافق على مشاركتها على حسابي في الإنستغرام على رغم ذلك.

يَصْدُرُ صفير من جهاز مراقبة الأمتعة عند مرور حقيبة جول تحته، قبل أن يكتشف ضابط الجمارك أن بداخلها شفرة حلاقة. فيقول جول معتذرًا ببساطة: لم أركب طائرة قَطّ، لذا لم أكن أعلم ما الذي يُمْنَعُ عليَّ وضعه في أمتعتي.

يبدو جول صادقًا هذه المرة، كما أن شحوب وجهه يُوحي بأنه مرتبك.

نُلَوِّحُ بأيدينا لآبائنا مودّعين إياهم، قبل أن نقصد بوابة قاعة الانتظار الخاصة بالمسافرين.

وبما أنه ما زال أمامنا نصف ساعة من الانتظار فأقرر الذهاب مع ماري إلى أحد المتاجر التي لا تخضع للرسوم الجمركية لنشتري سماعات عازلة للضوضاء، إذ إن ضجيج محركات الطائرة سيصبح لا يطاق لاسيما وأن رحلتنا ستستغرق ثلاثين ساعة. يكتفي رفاقنا بمراقبتنا أنا وماري ونحن حائرتان في اختيار طراز السماعات التي سنقتنيها من بين الطرازات المتنوعة المتوفرة

في المتجر.. من الواضح أن أفراد مجموعتنا لا يملكون نفس الميزانية التي خَصَّصْناها أنا وماري للسفر ولا نفس الحد الأقصى الدفع الذي توفره لنا بطاقاتنا الائتمانية. إن سماعاتي الحالية ما زالت في حالة ممتازة، ولكنني لا أرغب في أن تُلْتَقَطَ لي صورة وأنا أضع سماعات ذات طراز قديم، إذ كي أظل في القمة، عليَّ أن أنتبه إلى كل تفاصيل مظهري، خاصة وأنني بعد الضجة التي أَحْدَثَتْها مسابقتي أنوي التخطيط لسيناريو مشوق لرحلتنا من أجل متابعي حسابي، لأستثمر نجاحي أكثر.

وبما أن أنطوان هو الوحيد بيننا الذي بلغ سن الرشد، فإنني أطلب منه أن يبتاع قنينة شراب لعلها تسمح لنا بالنوم أسرع وسيجعل وقت الرحلة يبدو أقصر.. أما بقية المرافقين لنا فإنهم يملؤون حقائبهم بقِطع الحلوى وألواح الشوكولاتة، ثم يقرر بعضهم المشاركة في شراء علب سجائر.

يتدخل أنطوان قائلًا:

لقد توقفتُ عن التدخين لأنني اخترت شكلًا جديدًا من التدريب الرياضي لا مكان فيه للسجائر.

تجيبه ماري:

إنها العطلة! عليك أن تُطلق لنفسك العنان!

يهز رأسه رافضًا لأي نقاش.

يتدخل جول ليُبدي رفضه للمشاركة بدوره في مصاريف شراء السجائر: وأنا أيضًا لا أدخن.

هذا الفتى غريب، إنه مقل في كلامه، شَحِيحٌ في تفسيراته، وكأنه لا يشعر بضرورة تبرير أفعاله.

تَحْمِلُنا طائرة داخلية من تولوز إلى باريس التي نركب فيها طائرة عملاقة وفاخرة من طراز إي ٣٨٠، لقد قام والدي بترتيب تفاصيل هذه الرحلة بشكل مُحْكَم: نحن نسافر في درجة رجال الأعمال حيث المقاعد وثيرة وشاشات التلفاز عريضة وحديثة.

تصر ماري على الجلوس بجواري ولكنها تفهم بنظرة واحدة مني أنني أُفَضِّلُ رفقة أنطوان، ولهذا تلتحق بإلزا لتجلس قربها، في حين أن ضيفَيَّ الفائزيْن في مسابقتي إيناس وجول يجلسان جنبًا إلى جنب بطبيعة الحال.

وفور إقلاع الطائرة، يصير أنطوان فتًى جافّا منكبًّا على ألعاب الفيديو المتوفرة في الطائرة، قبل أن يتقوقع على نفسه وينشغل بلعبة غولف على هاتفه، أما فيما يخص إلزا وماري، فإنهما تتشاركان السخرية من البنطلون الذي ترتديه إيناس، وأعترف بأن بنطلونها شبيه بكِيسِ بطاطس كبير حيث إن هذه الفتاة لا تهتم بمظهرها على الإطلاق. أما بالنسبة إلى جول فقد استغرق في النوم وهو يضع سماعاته في أذنيه.

وبعد ثلاث عشرة ساعة من الطيران، تهبط الطائرة في مطار شنغهاي بالصين، وأنا سعيدة لِتَمَكُّنِي من تحريك ساقيَّ أخيرًا. بينما لا تزال أمامنا خمس ساعات قبل الصعود على متن الطائرة التالية، وهو وقت يكاد يكفينا فقط لعُبور نقاط التفتيش المختلفة للجمارك الصينية، هناك العديد من الضباط، نساءً ورجالًا يرتدون بدلات خضراء والذين يرشدوننا إلى صَفٍّ الانتظار الصحيح الذي علينا أن ننتظر فيه دورنا، ثم يطلبون منا المرور تحت جهاز مَسْحٍ لا يعمل، مما يضطرنا إلى العودة من جديد إلى نفس صف الانتظار.

كان بعض المسافرين الصينيين يتجاوزوننا بموافقة السُّلطات المحلّية. بينما أُظْهِرُ جواز سفري عشرات المرات للسُّلطات إلى أن تقوم إحدى الجُمركيات بوضع مُلصق على كتفي لا أفهم الجدوى منه. وعلى رغم أن لغتي الإنجليزية قد تحسنت من فرط مشاهدتي للمسلسلات الأمريكية في نُسخها الأصلية، فإن الإنجليزية التي يتحدث بها الصينيون لم تكن مفهومة قط بالنسبة إليَّ.

وبعد عناء كبير نجحنا في الوصول إلى صالة الاستراحة، ساعة قبل حلول موعد الإقلاع، جلسنا في مطعم كوري، قائمة الطعام غير قابلة للقراءة، ولكن لحُسن الحظ تحتوي القائمة على صور لكل طبق يُقَدِّمونه. نشير إلى الأطباق التي نرغب في تناولها للنادل الذي يبدو أنه لم يتعلم كيفية الابتسام، بينما يطلب بعضنا المعجنات الآسيوية، والبعض الآخر خضراوات طازجة مطبوخة في طبق حَجَرِيٍّ ساخن، أما ماري فإنها تختار حساء، لكن بمجرد تناول هذه المسكينة لبضع ملاعق منه يَحْمَرُّ وجهها، كون الخليط مُتَبَّلًا وحارًّا للغاية، تصرخ ماري وهي تكاد تختنق: هذا مريع!

يمزح أنطوان قائلًا:

يا لها من سخافة! كل هذا بسبب القليل من الفلفل الحار!

ثم يمسك ملعقته ويتذوق حساء ماري، وفجأة يعلو وجهه تعبير غريب، وكأنه سيتعرض للإغماء: هذا الحساء شبيه بالديناميت! من يستطيع تناول

فظاعةٍ مماثلة؟

أقول له:

أنت من أصررت على تذوقه.

يرد:

على الأقل أنا لم أخشَ التجربة..

لقد قام بتَحَدِّينَا فصرنا نتبادل نظرات مترددة قبل أن نخوض التحدي.

لكن الحساء سرعان ما يلهب فمي حتى أشعر بأن حنجرتي تشتعل وأنني أفقد الإحساس بلساني، بينما ألاحظ أن ماري مصممة على إنهاء حسائها لتُثْبِتَ لنا شجاعتها على رغم أن الدمع أخذ ينساب من عينيها، فننفجر ضاحكين في المرة الأولى التي نُحِسُّ فيها بأننا نُشَكِّلُ مجموعة حقيقية.

ينغمس «السيد أنطوان صاحب العضلات المفتولة» في ألعاب الفيديو ما إن يتخذ مقعده في الطائرة، وعلى الجانب الآخر من الممر تفتح إيناس علبة الحلوى الصينية التي اشترتها دون أن تعرف مذاقها أو مكوناتها، وتقول لنا: هيا، فلتجربوا هذه الحلوى.

نستمتع بتناول القليل منها في البداية، قبل أن تصيح ماري، قائلة: يا للقرف! إنها رديئة جدًّا!

وتضيف إلزا:

آه، يا لها من حلوى مقززة! إن مذاق هذه القطعة يشبه مذاق المحار الفاسد.

أركض صوب مرحاض الطائرة لأبصق آخر قطعة حلوى تناولتها. بسبب طعمها اللاذع والعجينة السوداء اللزجة داخلها، والتي جعلتني أشعر بأنني ابتلعتُ مادة القطران.

وبينما أتَطَّفُ فمي في المرحاض وأتفقد هيئتي أمام المرآة.

أقفز هَلَعًا..

إن هذا الطائر هنا، يحلُ محلَّ انعكاسي في المرآة، إنه ينظر إليَّ بعينيه اللتين لا تطرفان أبدًا، ورأسه يتمايل من جانب إلى آخر، وهو يقول: تعالي..

نحن ننتظرك..

إن صوته الهادئ يشبه فحيح الأفعى.. فأرتعش من رأسي إلى أخمص قدمي دون أن أدرك ما بوسعي فعله..

كلارا، تعاليْ!

يفتح الطائر منقاره عن آخره كما لو كان بإمكانه ابتلاعي، وهو ينادي: كلارا، كلارا!

ثم يليه طَرْقُ إيناس على الباب وهي تشعر بالقلق، فأجيبها باضطراب: نعم، نعم..

وحينها اختفى الكائن تمامًا كالمرة الأولى، لأكتشف انعكاسَ وجهي المُرتعب في المرآة.

وما إن أخرج من الحمام حتى تسألني إيناس:

هل أنت على ما يرام؟

بلى، بلى، فقط..

أبحث عن كذبة تجعلني أبدو في أفضل حال، فأقول لها:

لقد تقيأتُ بسبب الحلوى فحسب.

تغرق إيناس في نوبة من الضحك، وأجد نفسي أفعل مثلها كي أطردَ مخاوفي. لقد اكتشفت أن إيناس فتاة لطيفة جدًّا فأحاول أن أهتم أكثر بالتعرف عليها، ولو أنني أعلم مسبقًا أنني سأقطع علاقتي بها فور عودتنا إلى فرنسا، لأن فتاة لا تستعمل طلاء الأظافر ولا تذهب إلى صالون التجميل وأمها هي من تقوم بقَصِّ شعرها، وتشتري ملابسها من الأسواق الرخيصة لا تستحق أن تكون جزءًا من دائرة أصدقائي المقربين، إذ يلزمني أن أحافظ على الصورة التي أعكسها لمن يتابعونني.

وبينما نتجاذب أطراف الحديث حول عائلتينا، أحكي لها عن علاقتي بوالديَّ ومعاناتي من عدم فهمهما لي، حيث أتحدث وأتحدث بلا توقف وكأنني أُحَدِّثُ اختصاصية نفسية أو أبوح بأسراري لصديقة موثوقة..

ثم أسألها:

وأنت، هل لديك إخوة أو أخوات؟

تهز رأسها بنعم:

لديَّ أخت مصابة بإعاقة حركية نتيجة حادثة سير، فقد اصبح مصيرها هو البقاء في الفراش إلى الأبد وقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما تعرضتْ لذلك.

يبدو أن إيناس المسكينة لا تزال تحت تأثير الصدمة، إذ تتابع: إنني أُمْضِي وقتًا طويلًا معها، أُغَيِّرُ ملابسها وأقرأ لها قصصًا..

لكن ألا يزعجك أن تبتعدي لمدة طويلة عنها؟

طبعًا، بالتأكيد، لكنّ والديَّ ألحَّا عليَّ كي أسافر معكم للترويح عن نفسي.. إنهما يرغبان في أن تكون لديَّ حياة خاصة وألا أصير مجرد ممرضة لأختي، ولهذا عندما علمتُ بأمر مسابقتك قلت لنفسي إنها قد تكون فرصة جيدة.

أنا مسرورة لأن خطتي جعلت إيناس سعيدة لهذه الدرجة عكس جول الذي لم يُظهر فرحته بالانضمام إلينا حتى الآن. وفي هذه الرحلة الثانية التي لا تنتهي بالنسبة إلينا مما يصيبنا بالملل، باستثناء أنطوان الغارق في ألعاب الفيديو.. أتساءل إذا كنت قد ارتكبتُ خطأ في اختياره كضيفٍ لي، فمن المؤكد أنه شاب وسيم حيث إنه الشخص المثالي للظهور معي في صوري، ولكن افتقاره إلى فن الحديث مؤسف بالنسبة إليَّ.. أتمنى أن يبذل مجهودًا أكثر عندما نصل إلى وجهتنا.. لكني لست واثقة من قدرته على ذلك للأسف.

وبعد مرور أكثر من ثلاثين ساعة على مغادرتنا لتولوز ومشاهدة أربعة أفلام والاستماع إلى ألبوميْن غنائيين، وتناول ثلاث وجبات عسيرة الهضم وفطور مقزز وكذلك نومنا غير المريح، ومرورنا بِمَطَبَّيْنِ جويين تسببا في اهتزاز الطائرة كأنها تعرضت لزلزال، وبعد تحليقنا فوق أوروبا، روسيا وآسيا، ها نحن أخيرًا نضع أقدامنا على أرض هذه القارة الوحشية المأهولة بالكنغر ودِببة الكوالا، هذه الأرض المسماة: أستراليا.

تهبط الطائرة في مطار بريسبان حيث نلتقي مرشد الرحلة «ديف»، وهو رجل خمسيني مَرِح ذو بنية جسدية قوية ورأس حليق، وتغطي ذراعيه المفتولتين أوشام مختلفة الألوان وبفضل هيئته الشبيهة بهيئة حارس ملهى ليلي أظن إننا لن نتعرض لأية مخاطر في خلال إقامتنا هنا.

نصعد بعدها على متن سيارته الكبيرة ذات الدفع الرباعي، ونسير طيلة ساعتين على طول الطريق الساحلي «غولد كوست». إذ تعتمد أستراليا نظام قيادة السيارات على اليسار، ويلزمنا بعض الوقت لنعتاد على هذا التقليد الموروث عن البريطانيين.. وبينما يسود الصمت في السيارة ونغفو من فرط الإعياء.. نعبر المدينة الأيقونية «سيرفرز بارادايس» بشواطئها غير الجذابة ومبانيها غير المتناسقة حتى نصل أخيرًا إلى خليج «بايرون» حيث سنحظى بيوم من الراحة، قبل أن نركب طائرة أخرى ستحلق فوق الحاجز الكبير للشعب المرجانية وصولًا إلى جزيرة السيدة إليوت.

إن خليج بايرون هو بمنزلة جنة صغيرة تقع في ولاية «نيو ساوث ويلز» في الساحل الشرقي لأستراليا، وهي مدينة تبدو محاطة بأدغال كثيفة من الوهلة الأولى قبل أن نكتشف أنها غابة خصبة في أعماقها، كما أنها زاخرة بشواطئ لا منتهية تتلاطم فيها أمواج المحيط الهادي.

إن الضوء مختلف هنا حيث يبدو أكثر صفاء وسطوعًا من أوروبا، ولذا تعاني عيناي من أجل تمييز الأشياء المحيطة بي بسبب التعب المتراكم الناجم عن رحلتنا، لكنني متأكدة من أن كل شيء سيصبح على ما يرام. وفي مكتب استقبال الفندق يقوم ليف بأخذ مفاتيح غرفنا الموجودة في البيت ذي الطابق الواحد الذي سنُقيم فيه.. بينما نرى في ردهة الانتظار أحواضًا زجاجية تحتضن أنواعًا خطيرة من الثعابين والعناكب.

فتقول إيناس وهي تقترب لمشاهدة ثعبان بُنِّي نائم:

هذه الوحوش المقززة في كل مكان هنا على ما يبدو.

فيلْتَفُّ هذا الثعبان حول نفسه ويُخْرِجُ لسانه ببطء.

بينما تُعَلّقُ ماري:

إنه يصيبني بالقشعريرة!

وتقف خلفنا غير قادرة على الاقتراب من الثعبان، بينما أشاركها الخوف وعدم الرغبة في مواجهة هذه الأفاعي الخطيرة. ثم أقول:

أتمنى أن يكون طاقم الفندق قد قام بِتَفَقُّدِ غُرفِنا قبل إعطائنا المفاتيح.

ليرد جول:

سيفاجئني هذا لأنهم هنا معتادون على التعايش يوميًّا مع هذه الكائنات، وكل ما علينا هو أن نتجنب السير بأقدام حافية، والتأكد من أنه ليس هناك أي شيء خطير تحت ملاءاتنا.

فأجيبه قائلة:

يا له من برنامج مبهج!

تتجهّم وجوهنا عند رؤيتنا لملصق باللغة الإنجليزية يُذَكِّرُنا بأنه يتحتم علينا ألا ننسى إغلاق مصاريع النوافذ اتِّقاء للبعوض. لكن البيت الخشبي الذي تطل شرفته على الشاطئ هو بيتٌ دافئ جدًّا.. وبعد ذلك أبدأ في الإشراف على اختيار الغرف التي سيقيم بها أصدقائي حيث سيقيم الفَتَيَانِ في غرفة ذات سرير بطابقين، أما ماري وإلزا فستنامان جنبًا إلى جنب في غرفة بها سرير مزدوج، في حين أن إيناس ستنام في سرير إضافي إلى جانبهما، بينما أحظى وحدي بغرفة مميزة، أحس بأن أبي حاضر معي على رغم المسافة التي تفصلنا، صحيح أنه يعاني من صعوبة في التعبير عن مشاعره تجاهي، ولكن أفعاله تعكس مدى حبه لي.

وفي أول ليلة لنا بأستراليا، يُوقِدُ ليف النار لنجلس حولها على الشاطئ، ثم يمسك قيثارته ويغني لنا أغاني شعبية تتناسب مع الأجواء الشاعرية للمكان.. بينما ألتقط عشرات من صور السيلفي مع إلزا وماري، والتي أقوم بنشرها فورًا على مواقع التواصل الاجتماعي فتنال إعجابات المتابعين على الفور.

تبدو إيناس واقعة في حب الألحان التي يعزفها ليف، أما جول فهو يتأمل النجوم وفي عينيه حزن عميق،

وأنطوان ينغمس في تمريناته الرياضية اليومية بعدما حاول أن يصطحبني في نزهة قبل العشاء ولكنني رفضت، لأنني لم أسامحه بعد على سلوكه اللا مبالي في الطائرة، وسيكون مخطئًا للغاية إذا فكر في أنني سأكون رهن إشارته إلى أن يقوم بشحن جهاز ألعاب الفيديو الخاص به.

ونظرًا لأننا جميعًا مرهقون، فإننا نعود إلى غرفنا بسرعة، وقبل أن أغفو أجد نفسي أنحني في قلق تحت سريري للتأكد من عدم وجود أي حيوان أو حشرة قذرة تتسكع في أرجاء الغرفة، ثم أتحقق من أن كل النوافذ مغلقة.. وأن الحرارة المعتدلة وهدير الأمواج سيساعداننني على النوم.

لكنني أستيقظ في منتصف الليل، حيث زارني حلم غريب من جديد أحسست فيه وكأن يد أحدهم تُلامس جسدي.. كما أشعر بشيء فوق ساقي.. وعَرَقٌ بارد يجعلني أتساءل هل هذه هلوسة جديدة؟ وما إن أرفع رأسي ببطء حتى أكتشف أنه ثمة عنكبوت فوق ملاءتي تتقدم بهدوء صوب فخدي.. فأحاول السيطرة على رجفتي.. لكن الرعب قد شَلَّني تمامًا!

تتحسس يدي طريقها نحو المصباح المجاور لسريري، ثم أضيئه لأرى بوضوح هذا الكائن الأسود الضخم ذا الأرجل المغطاة بالشعر، حيث إنها صارت فوقي تمامًا وتتقدم نحوي في تردد..

فأرفع الملاءة على مهل لأُبْعِدَ هذه الحشرة اللعينة عن ساقي، قبل أن أقذف الملاءة بعيدًا بقوة.. وأصرخ لا إراديًّا من الخوف فتهرب في ذعر كي تتسلق الجدار في نفس اللحظة..

وهنا يظهر ليف على باب غرفتي وهو يسألني بلكنته الإنجليزية:

ما الذي يحدث؟

وبينما يقف أمامي مرتديًا سروالًا داخليًّا بسيطًا وممسكًا خنجرًا في يده، أشير إلى العنكبوت وأنا عاجزة عن النطق بكلمة واحدة، فيستعين ليف بمقبض خنجره لإسقاطها داخل مزهرية فارغة ثم يضع فوقها كتابًا كي يحبسها، ثم يقول:

إن إقامتك هنا بدأت بشكل سيئ.. فإن لدغة واحدة من هذه العنكبوت كفيلة بإعادتك إلى فرنسا داخل تابوت.

يرتجف جسدي في الوقت الذي يقتحم فيه أصدقائي ومدير الفندق غرفتي بعد أن أيقظتهم الجلبة التي

تسببتْ فيها رؤيتي للعنكبوت.

بينما يصيح المدير:

إليانور!

فأفهم من خلال إنجليزيته الركيكة أن العنكبوت هربت من أحد الأحواض الزجاجية الموجودة بالفندق، حيث يتابع:

من المؤكد أن الموظف المسؤول عن إطعام الزواحف والعناكب لم يغلق جيدًا إحدى فتحات الحوض الزجاجي.

ثم يعتذر المدير في ارتباك، ويلتقط إليانور المحبوسة داخل المزهرية.

وهنا تقترح إيناس:

هل تودين أن أبيت معك في الغرفة؟

إذ يبدو أن إيناس قد لاحظت توتري.. فأقبل عرضها بارتياح بينما يعود رفاقنا إلى أَسِرَّتهم.

وأمضي ما تبقي من الليلة وأنا أتقلب في سريري وأنتفض مرات عديدة جراء الخوف، حتى أجدني في الصباح الباكر وبعد انقضاء ليلة غريبة شبيهة بفتاة متوحشة، فأقرر تأجيل جلسة التصوير التي قررنا سابقًا أن نخوضها على الشاطئ ونحن نرتدي لباس البحر الذي ابتعناه من ماركات معروفة.. لكني لا أستطيع أن أتخلى عن نظارتي الشمسية، لأن عينيَّ محمرتان بسبب الإجهاد، وعلى رغم الحماية التي توفرها لي نظارتي، فإنه هناك هالة من الضوء تجعل مركز رؤيتي مظلمًا مما يجبرني على الالتفات يمينًا ويسارًا لرؤية التفاصيل المحيطة بي.

أبتلع بعدها قرصيْ أسبرين ثم أتمدد على الرمل لآخذ حمّام شمس مع الفتيات. ثم أغلق عينيَّ وأنا أحاول أن أَعَوِّضَ عدم نومي البارحة، في حين أن إلزا وماري تتجادلان حول أفضل مُصَفِّفِ شعر في تولوز.

أقول لك إن «رودريغو» هو الأكثر إبداعًا، فإنه يبتكر كل قصة شعر يقوم بها.

إنه لم يسبق أن فاز بلقب أفضل مصفف شعر في فرنسا، بينما فاز بها مرتين على التوالي «ميكائيل» الذي يعمل في صالون «كات».

وأنت يا إيناس، ما رأيك؟

أنا.. أنا لا أعلم لأنني لا أعرف مصففي الشعر هؤلاء.

فتحتُ عيني لأرى الابتسامة مرتسمة على وجهي صديقتيَّ الوقحتين. إذ أدرك كونهما حاقدتين على إيناس لأنها صارت قريبة مني للغاية لكنني أمتنع عن التدخل بينهن، لأنه من المطمئن لي أن تكون صداقتي مَوْضِعَ رغبة وتنافس بكل بساطة.

تسأل إلزا إيناس:

إذًا ما هو صالون التجميل الذي تقصدينه؟

أقصد.. حسنًا، لفترة من الزمن كانت أمي هي التي تعتني بشعري.. أما حاليًّا فأقصد صالونًا بثمن مناسب يوجد في المركز التجاري «غرامونت».

تنفجر إلزا وماري ضاحكتين بلا حرج، ثم تقول ماري بنبرة شريرة:

الآن فهمت! هل يَقُصُّونَ شعرك بآلة جَزِّ العُشب؟

لا أستطيع منع نفسي من الضحك، لأن قَصَّةَ شعر إيناس هي بالفعل قصة غير متناسقة وغريبة.

لتضيف إلزا:

وكم تدفعين لهم؟

فتجيبها:

أظن أن مبلغ الاشتراك الشهري الذي أدفعه لهم هو ستة وعشرون يورو.

ومن جديد تغرق ماري وإلزا في الضحك كطفلتين بغيضتين.

ثم تعلق إلزا:

أعتقد أن هذا السعر لا يكفي سوى لغسل شعرك بالشامبو في أي صالون تجميل.

وهنا ترد إيناس:

إن الستة وعشرين يورو هم المصروف الشهري الذي يمنحه لي أبي تقريبًا، حيث إن والدتي قد انقطعت عن العمل منذ إصابتها بالانهيار العصبي فلم تعد قادرة على الاعتناء بشعري.

تتدفق هذه الكلمات دفعة واحدة من فم إيناس، قبل أن تغادر الشاطئ تاركة منشفتها وراءها وتاركة إيانا مصابين بالدهشة.

مما يجعلني أشعر بالانزعاج لأنه كان عليَّ أن أتدخل.. أما بالنسبة إلى ماري وإلزا فهما راضيتان عما فعلتا، وكأنهما تطوقان منطقة نفوذهما تمامًا ككلاب الحراسة.. إنهما مُجَرَّدَتَانِ من المشاعر.

وعلى رغم مشكلات الرؤية التي أعاني منها، فإنني ألمح جول من بعيد وهو يقف فوق لوح ركوب الأمواج حيث يتزحلق على طول موجة مرتفعة، ويؤدي بعض المناورات والدورات الكاملة، مما يجعله يبدو مُهَيْمِنًا واثقًا من نفسه ومن قوته، وليس مجرد مراهق ضئيل وكئيب كما يبدو في العادة.

وعلى ضفة الشاطئ يتأمله أنطوان الذي يُبْرِزُ لباس البحر عضلاته المشدودة، فأتحداه على سبيل المتعة:

ألا ترغب في أن تُجَرِّبَ ركوب الأمواج؟

لا، ليس اليوم، لأنني أحترم برنامج التدريب الرياضي الذي أتَّبعه للغاية ولا يمكنني أن أحِيدَ عنه.

فأتساءل عما إذا كان يعرف السباحة أم لا حيث تَسَرَّبَ إليَّ الشك بسبب نبرة صوته سلوكه المتردد.

يتلاشى الأفق بعد ذلك شيئًا فشيئًا وتلتهم سحابة سوداء وحشية المحيط الهادي بأكمله، بينما تبدو أنها ستغشى الأرض وستجرف الرياح التي تصحبها الأشجار في طريقها عما قريب، وستغرق السهول تحت الأمطار الاستوائية الكثيفة والعنيفة. في حين أنه يتعين علينا أن نركب الطائرة التي ستأخذنا غدًا إلى جزيرة السيدة إليوت، ولديَّ إحساس مُبْهَمٌ بأن ما اختبرناه حتى الآن ليس سوى بداية لتَقَلُّبَاتٍ قادمة..

يوقضنا ديف فجرًا وهو يقول:

«هيا استيقظوا! لقد حان الوقت»

ثم يخبرنا بأنه تم تقديم موعد الرحلة، لأن رُبَّان الطائرة أخبره أن هذه هي فرصتنا السانحة للإقلاع قبل بدء العاصفة الاستوائية، إذ إنه هنالك منخفض جوي سينحدر من الشمال، ويُطَوِّقُ السواحل ليُدَمِّرَ كل شيء في طريقه، ولهذا فعلينا أن نسرع إذا كنا نريد الوصول إلى جزيرة السيدة إليوت لأن الوقت يداهمنا.

وبينما نجمع أمتعتنا في عجالة ونركب سيارة ليف، تشتكي ماري وإلزا من أنها لم تتمكنا من تصفيف شعرهما، وربما كنت أود الانضمام إليهما في شكواهما لكن ليف يبدو جادًّا فيما يقول، فوحده يعرف المنطقة جيدًا وأنا أثق في حُكْمِهِ.

أما نحن الأوروبيون فلا نعرف الأحداث المناخية الكبرى، ونظن أنه باستطاعتنا السيطرة على الطقس، التيارات المائية، وحرائق الغابات، لكن الأراضي في المحيط الهادي تبدو عدائية حيث تكثر الهَزَّاتُ الأرضية، تسونامي، أعاصير وتأتيها موجات حر تتجاوز الخمسين درجة.. فقد سبق وقرأتُ مقالًا في الطائرة حول الأراضي الموجودة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، وأن الناس الذين يَحْيَوْنَ بها متواضعون، لا يعتقدون أنهم المُسَيْطِرُونَ على كل شيء، لأنهم يعلمون أنهم صغار للغاية أمام قوة الطبيعة، إذ إنه من الممكن أن يتحطم أية منزل وتتطاير أجزاؤه جَرَّاء إعصار في ثوانٍ معدودة، أو أن تختفي سفينة إثر ارتطامها بموجة عملاقة.

أنظر عبر الزجاجي الأمامي للسيارة إلى الأشجار التي تهتز بفعل الرياح الغاضبة.. بينما نلتزم الصمت في طريقنا ونحن نتخيل المطبات التي ستتعرض لها طائرتنا قريبًا.. وفي المطار الصغير حيث تنتظرنا طائرتنا لم يكن هناك سوى مستودعات بشعة تحيط ببُرج تحكم بسيط..

فيقول أنطوان وهو ينظر في هاتفه الذكي:

إن طائرة النقل الخفيف هذه هي من طراز «سيسلا غراند كارافان»، وتسمح بالإقلاع والهبوط في وقت وجيز.

فيجيبه جول وهو يشير إلى السماء المظلمة:

ليس الإقلاع ولا الهبوط ما يخيفني بل الرحلة نفسها.

وقد كنا نحن الركاب الوحيدين على رغم أن الطائرة تَسَعُ خمسة عشر راكبًا على متنها. بينما يُظْهِرُ ليف تذاكر سفرنا إلى المضيفة التي يبدو أن قوامها وساقيها السمينتين لَا تتناسب مع عملها.

ويبدو أنه أمامنا بضع دقائق قبل أن تبدأ رحلتنا، فأستغلهم لأعطي تعليماتي كقائد في ساحة المعركة: إلزا افتحي الحقيبة وأخرجي منها أحذيتنا ذات الكعوب العالية، ماري أعطي إيناس آلة تصويرك كي تلتقط لنا صورة أمام الطائرة.

فقد كنت قد تلقيتُ أزواج أحذية من علامة فاخرة ومرموقة قبل مغادرتنا لفرنسا مباشرة.. كما أن طائرتنا جاهزة للإقلاع ومدرج المطار والسماء الملبدة بالغيوم سَيُشَكِّلانِ خلفية جريئة للصور.

لكن ماري وإلزا تعترضان بقولهما:

ولكننا لم نُصَفِّفْ شعرنا!

فأجيبهما باستخفاف مستخدمة عبارة قديمة لجَدِّي: ومن بإمكانه الحفاظ على تصفيفة شعره أمام هذه الريح الكفيلة بِنَزْعِ قرون الثيران؟

أما جول فيجلس على سور صغير ولا يُبْدِي أي اهتمام بنا، أو بوضعياتنا المبالغ فيها، المستوحاة من فتيات جيمس بوند الرخيصات، في حين اختفى أنطوان في الحمام لشعوره بالقلق من الرحلة.

يُلَوِّحُ لي ليف بيده كي أقترب من مكتب التسجيل، قائلًا: كلارا هل بإمكانك المجيء من فضلك؟

أترك ماري وإلزا أمام عدسة تصوير إيناس.

فيسألني:

هل تعلمين أين هو جواز سفرك؟

مع جوازات رفاقي على ما أعتقد، لقد وضعتُه ليلة أمس على طاولة الصالون تمامًا كما طلبتَ منا.

يقول وهو يبدو عليه القلق:

أنا لا أفهم، جواز سفرك غير موجود، ربما يكون قد سقط منك أو يكون داخل حقيبتك. يلزمنا التحقق من ذلك.

وهنا أعطي الأمر بتفتيش كل الأمتعة ولكن يظل جواز سفري مفقودًا، فتسألني إلزا: أليسَ من الممكن أن تكوني قد تركتِه في غرفتك بالفندق؟

ليرد ليف:

سأتصل بالفندق الليلة وسنرى! ألا تملكين أية نسخة مُصَوَّرَةٍ لجوازك؟

أفكر لبضع لحظات قبل أن أجيبه بصوت عالٍ:

بلى، أملك واحدة على هاتفي المحمول!

آخذ هاتفي من جيبي، وأبحث فيه عن صورة جوازي لأظهرها لمضيفة الطيران، والتي تبدو غير مكتفية بالصورة إلا أن ليف يُمرر لها ورقة نقدية من فئة خمسين دولارًا أستراليًّا لتغض الطرف عنها، وتقول: حسنًا، أتمنى لكم رحلة ممتعة!

نسرع بعد ذلك بالصعود على متن الطائرة قبل أن تُغَيِّرَ رأيها. لنسير من الممر الرئيسي الضيق بالطائرة والذي يفتقر إلى أية مساحة أمدد فيها ساقيَّ، الأمر الذي يجعلني أتساءل كيف سيكون باستطاعتنا إخلاء الطائرة بسرعة حال تعرضنا لحادث..

نربط أحزمتنا دون أن ننتظر أن يطلب الربان منا ذلك، لأننا مرتعبون من فكرة الانطلاق صوب كتلة السحب الوحشية التي تبتلع الأرض كما لو كانت حمم منصهرة تتدفق من بركان. بينما تُصْدِرُ محركات الطائرة المروحية ضجيجًا رهيبًا، ويجلس ليف بالقرب من الربان وهو رجل بلحية غير مهندمة ولديه هالات سوداء تحت عينيه المتعبتين، تشير لاحتمالية إدمانه على احتساء المشروبات الكحولية.. أتمنى أن تكون لدى مرافقنا ليف بعض المعارف الأساسية حول قيادة الطائرات في حالة ما إذا أصيب قبطاننا بوعكة مفاجئة.

تنطلق الطائرة على مدرج المطار بينما يرتعش جناحاها، ثم تندفع عكس التيارات الهوائية، ويمازح كلٌّ من الربان وليف بعضهما في مقصورة القيادة،

إن هذه العاصفة الهائلة تبدو جزءًا من حياتهما اليومية، بل حتى البرق الذي يتشكل على هيئة أغصان متشابكة لا يؤثر على هدوئهما.

وأخيرًا، وعلى عكس توقعاتنا، تنجح الطائرة في الارتفاع ومغادرة الأرض. في حين يطلق أنطوان صرخة شبيهة بصرخة فتاة صغيرة، وتتشنج يداه على مسنديْ مقعده.. حيث يبدو أن العضلات لا تُجْدِي نفعًا، وإنما الشجاعة وحدها هي ما تهم. وتحت رحمة الرياح العاتية، نتأرجح في كل الجهات، وعبر نافذة الطائرة أرى أننا نتجاوز اليابسة لنحلق فوق المحيط قبل أن يبتلعنا السحاب.

تهتز الطائرة بالكامل فنشعر أنه من المؤكد أننا سنموت، فأغرز أظافري في يد جول الذي يجلس بجواري، مسترخيًا نوعًا ما، وعلى رغم عدم اعتياده السفر عبر الطائرة فإنه من الواضح أنه يتكيف مع الأوضاع العصيبة كما تتكيف الحرباء مع محيطها.

يقول لي بلُطف:

سنكون بخير.

لا يسحب جول يده من يدي على رغم أنني أستمر في الضغط عليها..

تدفعنا الاهتزازات في كل جانب، تقع حقيبة يد إلزا فوق رأسها وتتبعثر محتوياتها من مستحضرات التجميل على أرضية ممر الطائرة.

نسمع إشارة صوتية داخل قمرة القيادة، يقوم الربان بالضغط على بعض أزرار التحكم بالطائرة، وإيقاف تشغيل أزرار أخرى، ثم يغير مسار الدفع لتحلق الطائرة بشكل عمودي.

من جديد يطلق أنطوان الصرخة قبل أن يلتقط كيسًا ورقيًّا ليتقيأ داخله.

تقول إيناس:

آه، هذا مقزز!

تشق الطائرة السحاب لنجد أنفسنا محاطين بسماء زرقاء صافية وشمس ساطعة.

لقد ابتعدنا عن الخطر!

أسحب يدي بسرعة من يد جول الذي يوجه لي ابتسامة ساخرة، أرمقه بنظرة حادة كي يلزم الصمت.

يظل هذا الفتي لغزًا محيرًا بالنسبة إليَّ لا أستطيع فك شفرته، قد يكون أحيانًا باردًا وغامضًا، ليصير بعدها شديد الاهتمام بالآخرين، وبإمكانه أن ينام كسِنجاب، قبل أن يفاجئني وهو يتزحلق فوق الأمواج الساحرة.. تُرى عَمَّ يبحث في هذه الرحلة؟ لا أملك جوابًا حتى الآن عن هذا.

تتلاشى السحب في الأفق الممتد أمامنا، ونتمكن أخيرًا من الاستمتاع بالنظر إلى البحر الزمردي تحتنا، بعدما خفض الربان ارتفاع الطائرة لتعبر فوق الحاجز المرجاني العظيم.

تقول ماري:

يا له من منظر خَلاَّب!

تضيف إيناس:

لا أطيق الانتظار كي أسبح في هذه المياه الصافية!

نلتصق بنوافذ الطائرة لنتأمل بإعجاب جزيرة السيدة إليوت المحاطة ببحيرة بديعة يَحُدُّهَا سياج مرجاني، تبدو الجزيرة من أعلى على هيئة سلحفاة، وفي جانبها الشمالي هناك بركان ينفث دخانًا.. حيث قامت الحمم المتتالية له بنحت ما يشبه ذراعين صخريين في الحَدِّ الشمالي لأقصى الجزيرة، بالإضافة إلى سلسلة من المرتفعات التي تطوق الغابة والبحيرة.

في الجانب الجنوبي يتراءى لنا الفندق بمرافقه الفخمة، وبيوته ذات الطابق الواحد المشيدة على الماء فوق ركائز متينة، وكذا مدرجًا أفقيًّا ممتلئًا بالعشب مخصصًا لنزول الطائرات المروحية.

تقترب طائرتنا كثيرًا من الماء، يصرخ أنطوان: سنغرق جميعًا!

تقول إلزا ساخرة:

إنك حقًّا جبان!

يُطمئنا ليف قائلًا:

لا داعي للقلق، فهذه الطائرة مصممة للهبوط في مدرجات صعبة وقصيرة.

تدور الطائرة مرتين حول الجزيرة، مما يتيح لنا جميعًا وقتًا كافيًا لالتقاط الصور، ثم تتخذ الطائرة وضعية الهبوط أمام المدرج، وبما إن الرياح قوية فإن

الربان يُمِيلُ الطائرة جانبيًّا لتتمكن من مواجهة التيارات الهوائية، مما يزيد من قلقنا إذ إننا فوق المياه مباشرة.. الاهتزازات تشتد أكثر فأكثر، تلامس عجلات الطائرة الأرضية للمرة الأولى قبل أن تَرْتَدَّ بعنف، يستغل الربان الفرصة لتعديل مسار الطائرة أمام المدرج.

المدرج المغطى بالأعشاب البرية وَعْرٌ، نحس بأننا نتعرض لزلزال، لكن الطائرة لا تخفف من سرعتها، أرانا نقترب من الشاطئ بسرعة كبيرة، المحرك يُصدر هديرًا ونشعر بضغط المكابح لتخفيف السرعة بلا جدوى، نتشبث كلنا بمقاعدنا، الطائرة منطلقة بسرعة مفرطة من المستحيل معها تفادي تحطمها في المحيط.

أنطوان يبكي، إلزا وماري تعانقان بعضهما، ألقي نظرة على إيناس التي تبدو فزعة، في حين أن جول يحاول الحفاظ على هدوئه ولو أن يديه تتمسكان بقوة بالمقعد الموجود أمامه.. على بُعْدِ بضعة أمتار من الشاطئ تتوقف الطائرة بمعجزة!

نحن سالمون وآمنون! ولكننا مذهولون لذا لا نستطيع أن نقرر إذا ما كان علينا أن نصفق للربان أو أن نسُبَّه بقوة.. تنحرف الطائرة لتقوم بنصف دورة ثم تصطف بمحاذاة القاعة الصغيرة المخصصة لاستقبال السياح.

يفتح الربان باب الطائرة، يسارع أنطوان بالقفز خارجها دون أن ينتظر أحدًا، ما زلتُ أنتعل حذائي ذا الكعب العالي، لهذا أهبط بِعَناء على سلم قصير، بمجرد ما إن أضع قدميَّ على الأرض حتى ينغرس كعب فردة حذائي في التربة الرخوة، أتمايل ثم أتهاوى لينفجر أصدقائي ضاحكين.

يقول لي جول وهو يمد لي يده ليساعدني على النهوض: أنت لم تُخْلَقِي لتعيشي في هذا العالم الممتلئ بالصعوبات!

أقبل مساعدته، أنهض من سقطتي، أنفض ثيابي لإزالة الغبار، وأنا أشعر بأنني مثيرة للسخرية وأبدو كفتاة لَعُوبٍ تقف في مكان مخصص للعُمَّال، لقد بدأتُ أستوعب أن هذه الرحلة لن تكونَ سهلة على الإطلاق!

كلاراااااا!!!!!!

أستيقظ من نومي عَنوة إثر الطرق المستمر على بابي حتى أتعرف على صوت لإلزا التي تبدو في غاية الذعر، فأسألها: ماذا هناك؟

وبينما أضطر إلى إغماض عينيَّ لأنني لا أتحمل أشعة الشمس الساطعة حيث السماء الزرقاء الصافية، والرياح التي هدأت بعدما تبددت السحب بفعل ساحر.. إن البيوت ذات الطابق الواحد التي نقيم فيها مشيدة على ركائز مثبتة فوق مياه بلون الفيروز مما يجعلها شبيهة بِحَوْضٍ مائي خشبي، حيث يحظى كل فرد من مجموعتنا بِبَيْتٍ خاص، وثمة جسر عائم يربط البيوت الخشبية ببعضها وصولًا إلى الشاطئ.

تجيبني إلزا:

لقد انقطعت خدمة الواي فاي..

ماذا؟

تحققي من ذلك بنفسك.

تقولها وهي تشير إلى شاشة هاتفها، فأدير رأسي لأرى بشكل أفضل إذ إنني ما زلت أعاني من تلك الهالة المضيئة على مستوى نظري.. وبالفعل أعجز عن إيجاد أية إشارة استقبال على شاشة هاتفها، فأقول: ربما علينا أن ندفع للفندق مبلغًا إضافيًّا نظير الواي فاي، لا تقلقي، سنستفسر عن الأمر في مكتب الاستقبال.

أرتدي لباس البحر وتنورة، وأبتلع قبل أن أغادر قرص أسبيرين آخر لعله يخفف من ألمي. كي أتمكن من استغلال درجة الحرارة التي تناهز الثلاثين، وهذا الطقس الملائم للاستمتاع بالسباحة..

في تلك الجزيرة بساتينُ أشجار صغيرة متناثرة هنا وهناك تؤوي مجموعات من الطيور، فالمكان عبارة عن محمية طبيعية لأنواع الطيور المهددة بالانقراض، كما تُوَضِّحُ ذلك لوحة في مدخل المطعم الوحيد بالجزيرة

بالإضافة إلى صور تُعَرِّفُنا على طيور مثل طائر النمنمة وهو طائر صغير مُسْتَوْطِنٌ، طائر الكيترال، طائر الخرشنة البني، طائر الغاق السقطري، طائر خطَّاف البحر القزويني، وطائر بوفينوس باسيفيكوس. حيث توجد لهذه الطيور أعشاش كثيرة فوق الأغصان بينما تزعج زقزقة صغارها الأذنين باستمرار، وعلى طول الطريق نرى لافتات تمنع السياح من لمس الأعشاش وصغار الطيور.. وحين يسقط طائر صغير من عشه على الأرض أمام أعيننا، تَحُطُّ أمه على الرمل لإنقاذه ولكنَّ نورسًا ينقض عليه ليمسكه بمنقاره قبل أن يلتهمه.

وهنا تخرسنا الصدمة هنيهة، ففي ثوانٍ معدودة خسرت الأم صغيرها..

فتصرخ إلزا:

هذا فظيع!

بينما أشرع في الضحك دون القدرة على السيطرة على نفسي، لتسألني مستاءة: ما المضحك في الأمر؟!

أجيبها:

انظري إلى شعرك!

فتُمرر يدها على شعرها ويتجهم وجهها وهي تقول: آه، هذا مقزز!

إذ سقطت فضلات طائر فوق رأسها دون أن تشعر بذلك، فأقول لها: تعاليْ، سنبحث عن الماء لتنظيف شعرك.

تنظف إلزا شعرها بينما أتأكد من أن خصلاتها صارت خالية من الفضلات، وبعدها نستأنف طريقنا صوب مكتب الاستقبال، حيث نجد في انتظارنا طالبة تخبرنا بأن هوائي برج الاتصالات المُثَبَّت فوق المنارة قد تعرض لعطل، ولم تعد هناك أية وسيلة للتواصل مع العالم الخارجي. فنندفع صوب المنارة التي تقع في الجانب الغربي للجزيرة، والتي يبدو أنها تتجاوز الثلاثين مترًا، ويُذكرني لوناها الأحمر والأبيض بكُتب مصورة قديمة لشخصية «تان تان» التي كان والدي يقوم بجمعها.

وعلى قمة المنارة وتحديدًا على شرفة الحراسة نجد ليف وجول وهما يراقبان بعض موظفي الفندق الذين يصعدون إلى قبة المنارة؛ للوصول إلى الهوائي الكبير.

فأقول لإلزا:

هل تريدين الصعود إلى شرفة الحراسة؟

لكنها تجيبني:

إنها عالية جدًّا وأنا أصاب بالدوار في الأماكن المرتفعة، ولهذا لا يغريني الصعود إليها.

أتركها بالقرب من قاعدة المنارة حيث أعتقد أنها ستكون سعيدة بالالتحاق بماري وإيناس من أجل أخذ حمام شمس. وأتجه نحو السلم الحلزوني الذي يبدو كأنه يلتف حول نفسه إلى ما لا نهاية، ثم أتقدم بعزم لصعود الأدراج حيث اللافتة التي تشير إلى أن عدد الأدراج يبلغ مائتين وسبعة وأربعين، مما يُعفي الزائرين من عَدِّهَا.

أفكر في جواز سفري المفقود، في العنكبوت التي اقتحمت غرفتي، وفي هذا المأزق الجديد، إذ يبدو أن الحظ السيئ يرافقنا. وفي ذلك الحين تشتد الحرارة أكثر فأكثر وأنا أرتقي السلم، وفي منتصف المسافة الفاصلة بيني وبين شرفة المراقبة يوجد كرسيٌّ حديقةٍ خشبي قديم في ممر ضيق، يسمح باستراحة قصيرة لمن يملكون الشجاعة الكافية لصعود المنارة، وعلى الكرسي عُلِّقَتْ ورقة كُتِبَ عليها بالإنجليزية: «للاستعمال فقط في حالة الطوارئ»، فأبتسم وأجلس لوقت يكفي بالكاد لالتقاط أنفاسي، وأنا أفكر في أن حارس المنارة يملك حسًّا فكاهيًّا، وبعدها أتابع صعودي إلى أن أصل إلى الشرفة حيث أنضم إلى ليف وجول، فأسألهما: ماذا يحدث؟

يجيبني ليف:

لقد انكسر الهوائي، قد تكون الطيور هي المتسببة في ذلك.

بينما يضيف جول:

أجل، ولكن هذا الأمر غريب مع ذلك.

لأقول له:

لا أفهم!

وهنا يطلب مني الاقتراب من الهوائي الذي يَنْكَبُّ الفَنِّيُونَ على محاولة إصلاحه، ثم يقول: انظري، إن كلًّا من كابل الطاقة وسلك الإنترنت قد تم قطعهما بشكل مُحْكَمٍ...

فيقاطعه مسؤول الفندق الذي يتحدث الفرنسية بصعوبة: بالفعل، يمكننا اعتباره عملًا تخريبيًّا، ولكنني لا أفهم لماذا سيقوم أحدهم باستهداف وسيلتنا الوحيدة للاتصال.

يصيبني القلق وأنا أتخيل هجرة متابعي حسابي على الإنستغرام إلى حسابات أخرى إذا طال غيابي عنهم بسبب انقطاع الإنترنت.

فأسأله:

هل بإمكانكم إصلاح هذا العطل؟

لا، إنها المرة الأولى التي نواجه فيها هذه المشكلة، ويلزمنا أن نطلب قِطَعَ غِيار من خارج الجزيرة، ولكن الطائرات متوقفة حتى إشعار آخر، نظرًا إلى أننا في آخر اتصال لنا بالقارة تم إخطارنا بأن هناك عاصفة قادمة لم نتعرض لمثلها من قبل. لقد كنتم محظوظين لأنكم تمكنتم من الوصول إلى الجزيرة قبلها.

يقول جول بانفعال:

ولكن ما الحل؟

فيرد عليه:

لدينا مؤن تكفينا لخمسة عشر يومًا، وإذا قمنا بترشيد استهلاكنا لها قد تكفينا لثلاثة أسابيع.

يلتفت جول حائرًا صوب المحيط، وهو يتأمل الأفق والنوارس التي ترفرف في الأعالي بأجنحتها المنبسطة، ثم يقول: لم يتبق أمامنا سوى مراقبة السماء لعل طائرة تأتي لنجدتنا عما قريب..

«علينا أن نواجه الحظ السيئ عن طيب خاطر»

عبارة أخرى كان جدي يرددها. وأذكر أنني قمت بتدوينها في دفتر ملاحظاتي إلى جانب عباراته الأخرى لأحفظها عن ظهر قلب، حيث إنني أحب أن أستخدمها في محادثاتي كلما دَعَتِ الحاجة إلى ذلك، وفي كل مرة أقوم فيها بهذا تسترجع ذاكرتي وجه جدي الحنون.

ها نحن محتجزون في جزيرة أشبه بالفردوس، وحرارة الماء مناسبة، والشمس ترسل أشعتها الذهبية ابتداء من الساعة الرابعة صباحًا، لكنها أفضل من سجون كثيرة بالطبع، لكن الشيء الوحيد الذي يُعَكِّرُ صفو هذه الرحلة هو أن عينيَّ تخذلاني بشدة، إذ إنني أصحو في الصباح بجفنين ملتصقين، وأشعر بالرعب من أني قد أعجز عن رؤية نور النهار مجددًا.

بجانب مكتب الاستقبال هناك غرفة تمريض بلا ممرضة، ولكنها تتوفر على ما يلزم من أجل تضميد جرح، التخفيف من آلام الرأس أو استخراج السم بعد التعرض للدغة من سمكة الحجر. حيث أعثر هناك على قطرة من أجل عيني اللتين أسعى جاهدة لتنظيفهما ثلاث مرات في اليوم.

ثم نقرر أن نستمتع باستكشاف الجزيرة، إذ أتمنى ألا أخسر الكثير من المتابعين جراء انقطاع شبكة الإنترنت، على أية حال فنواصل التقاط صور لملابسنا ومستحضرات التجميل التي نستخدمها على الشاطئ تحت ظل النخيل، وعلى الجسور العائمة التي ترتفع فوق المياه الفيروزية. بينما أقوم بإنشاء مكتبة صور رقمية أنوي مشاركتها مع متابعي حسابي بمجرد عودتنا من جزيرة السيدة إليوت.

إن النشاط الرئيسي في هذه الجنة المرجانية هو الغوص في الماء، ونحن لم يسبق لنا خوض أية تجربة في هذا المجال. ولهذا ينصحنا المسؤول عن أنشطة الغوص بـأن نبدأ أولًا بالغطس باستعمال المِنشاق[4] فنجهز أنفسنا للذهاب بغرض استكشاف البحيرة، ونحن نحمل عدتنا من أقنعة الغوص، أنابيب التنفس تحت الماء وزعانف السباحة.

وعندما يرفض أنطوان دعوتنا له للانضمام إلينا بحجة تكريس وقته لتمارينه الرياضية، أفكر في أنني ربما دفعتُ ثمنًا غاليًا باصطحابه معي في رحلتي بناءً على مؤهلاته الجسدية الجذابة وعضلاته البارزة. فهذا الفتى يتبع موضة لا تناسب ذوقي ويُضْجِرُني حَدَّ الموت، حيث إن حديثه سطحي وليس هناك أي شغف أو اهتمامات مشتركة بيننا أبدًا. إنه لا يرتقي حتى لمستوى ميدالية كان سيروقني الحصول عليها ووضعها على صدري لإثارة غيرة منافساتي. ولكن هنا، وسط هذا المكان المجهول، يصبح أنطوان غير مثير للاهتمام بل ويبدو سخيفًا في لباس البحر الضيق الذي يرتديه.

بمجرد ملامسة جسدي للمياه، ينتابني إحساس رائع بالخفة وأنا أطفو فوق الشعب المرجانية ذات الألوان الصارخة، كما أن حضورنا لا يُفْزِع الأسماك وكأننا جزء لا يتجزأ من الطبيعة الرحبة، حيث يحظى كل نوع من الأحياء بمكان له. هناك أسماك متنوعة الأحجام والأشكال: كبيرة، صغيرة، مسطحة، طويلة، ملونة، مُرَقَّطة، وحيدة أو في مجموعات متخفية في الرمل، منسجمة مع الطحالب، أو مختبئة في الشقوق الصخرية.

ومن الواضح أن جول هو أكثر فرد في المجموعة ارتياحًا، لأنه يُقْدِمُ على الغوص دون أنبوب التنفس في أعماق البحيرة، بينما نظل نحن قريبين من سطح الماء حرصًا على سلامتنا. إذ يبدو أنه يُقَدِّرُ الفرصة التي أتيحت له ويستغل كل لحظة في الاستمتاع بها، ولا يهتم مطلقًا بتكوين صداقات معنا أيًّا كان نوعها، فأراه يتقدم صوب المرجان في تناغم مع كل العناصر المحيطة به، وأنا أغبطه على استمتاعه الفعلي بالحياة، عكسنا أنا وصديقاتي الراغبات دومًا في مشاركة أفعالنا، حركاتنا وأفكارنا مع العالم بأسره. على عكس جول الذي يعيش اللحظة بمعنى الكلمة دون حسابات أو دوافع خَفِيَّة.

يستدير نحوي وهو يشير بإيماءة إلى سلحفاة برمائية تسبح تحتي، فأتحسس قوقعتها ذات المُعَيَّنات البنية والصفراء بيدي حيث تبدو وديعة تمامًا كحيوان أليف. بينما يبتسم لي جول وهو يرفع إبهامه مشجعًا إياي، إنها لحظة سحرية خاصة، وفجأة تسري قشعريرة في جسدي تجعلني أتمنى لو كانت بحوزتي كاميرا مضادة للماء لِأُخَلِّدَ هذه اللحظة في صورة، ولكن أعيننا وحدها كان باستطاعتها تخليد هذه الذكريات إلى الأبد.

أطلق صرخة ابتهاج، وحين يقترب جول مني، فأقول له:

هذا مذهل! أرأيت، لقد كانت السلحفاة تتبعنا ككلب صغير!

انظري، ما زالت هنا.

تصعد السلحفاة إلى سطح البحيرة لتُوَدِّعَنا قبل أن تغوص مجددًا للالتحاق بعَشيرتها.

رائع! شكرًا لأنك نبهتني إلى وجودها.

بل أنا من يشكرك لأنك قمت بدعوتي إلى هذه الرحلة الممتعة.. إن عائلتي لا تملك تلك الإمكانيات مادية وبالنظر إلى نتائجي الدراسية أعتقد أنني لن أتمكن من تحسين مستوانا الاجتماعي، لذا فلم يكن باستطاعتي تحقيق حلم السفر إلى مكان مماثل لولاكِ.

أنظر إلى أسفل باستحياء مع أن جول محق في كلامه، إذ إنني أملك عائلة ميسورة وكريمة. ثم ننضم إلى رفيقاتنا اللواتي يلاحقن أسماك الراي الصغيرة والتي تختفي الواحدة تلو الأخرى في الرمل. بينما أواجه صعوبة في الحفاظ على رؤية واضحة، حيث إنني أميز الأشكال المتحركة ولكنني لا أتبين ماهيتها، ويلزمني أن أعود إلى الشاطئ لأرتاح.

وفجأة تتلاشى المناظر بسرعة قصوى.. ويصير رفاقي بلا ملامح.. كما تختلط الألوان..

فأشعر بالهلع..

إذ لم أعد أتعرف على أي شيء من حولي، كما أنني عاجزة عن تحديد موقعي ومعرفة الاتجاه الذي يجب عليَّ أن أسبح فيه لأصل إلى الضفة، فأظن أنه ينبغي أن أخلع قناعي ربما يكون الضباب الذي يغطي قناع الغوص هو ما تسبب لي في هذه الرؤية المهزوزة؟ لكني حين أنزعه لا شيء يتغير.

فأبصق أنبوب التنفس من فمي؛ لأنني أريد أن أصرخ إلا أن المياه تغمرني وتتسرب إلى حلقي حتى يختفي رأسي تحت الماء، ويَصْطَبِغُ كل شيء باللون الرمادي لدرجة تجعلني أرغب في التقيؤ.. لكني أقاوم إلى أن تخور قواي، إذ يتعين عليَّ أن أطفو كي أتنفس في حين أن المياه المالحة قد اجتاحت حلقي بالفعل.

أتساءل تُرى ماذا يفعل أصدقائي الآن؟ ألا يلاحظون معاناتي؟ أليس من المفترض أن يمد لي أحدهم يده لينتشلني؟ ثم أغمض عيني اللتين تعذبانني بشدة، وأنا أفكر في تلك السلحفاة، وفي تلك اللحظة الجميلة التي تقاسمتُها مع جول. حتى يحيط بي الظلام والصمت.

تسير الحفلة على نحو رائع بينما تحث الموسيقى الصاخبة المدعوين على الرقص، حتى إنني تقربت من إحدى الفتيان من أجل التسلية فقط من دون أن أعرف هويته أو أن أرغب في ذلك، إنه مجرد فتى مجهول بوسعه أن يحلم بخوض مغامرة معي كالآخرين، لكنه لن يحصل على أي شيء بالطبع..

ومن ثم يقوم المسؤول عن الدي جي برفع صوت الموسيقى أكثر بينما يقدم النادلون يقدمون المشروبات المختلفة بلا توقف لضيوفي الذين يقصد بعضهم الشرفة، ويندفع بعضهم الآخر نحو المسبح وهم يطلقون ضحكات عالية، كما يقومون بلعب دور المهرج أحيانًا.

وكأنها أمسية الجنون اللا محدود.. ففي الصالون الدافئ الذي يحب أبي المطالعة فيه أمام الواجهة الزجاجية المطلة على النهر تستقبل إلزا الأصدقاء الذين يرغبون في الحصول على بعض المواد المخدرة.. أما أنا فأكتفي بالمشروبات كما أنني أرفض التدخين مع بعض الاستثناءات، ربما بسبب خالي الذي كنا نزوره أنا وأمي في المستشفى طيلة ستة أشهر إلى أن قاده سرطان الرئة إلى المقبرة.

لكنني كنت أشعر بأنني مضطرة إلى المكوث معهم أحيانًا كي لا أبدو أمامهم طفلة صغيرة حمقاء، ولذا أنتظر دومًا أن يتجمع أصدقائي حول الطاولة للتدخين كي أستنشق كمية ضئيلة للغاية منه، لأنني لا أريد السقوط في فخ الإدمان ببساطة. وبعدها ينتابني الحماس الشديد والرغبة في الرقص لساعات طويلة.

ربما أفعل ذلك أيضًا لأنني أتمنى في داخلي أن يقوم أحدهم بتصويري، وأن تنتشر صوري على الإنترنت، ويتحدث الناس عني، عن بذخي وإتقاني لإقامة حفلات عظيمة.. أما في قاعة البلياردو فهناك فتيان يتحدون بعضهم في احتساء المشروبات بشكل أسرع، وعلى رغم أنني لستُ لاعبة سيئة في هذا التحدي، فإنني لا أرغب في أن أثمل، أو أن أتقيأ أو أن أفقد وعيي، لأن بعض صديقاتي سَيَكُنَّ مسرورات لو استطعن نشر صور لي وأنا في هذه الحالة.

أقصد المطبخ لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام وأُعْلِمَ النادلين بأن هناك نقصًا في الحلويات، وأطلب إحضار المزيد من المشروبات.. حيث إن

متعهد الحفلات «جو» الذي أتعامل معه هو رجل محترف يرشد معاونيه كما لو كان قائد أوركسترا، ولهذا فأنا أعرف أنه بوسعي الاعتماد عليه.

ثم أدفع الباب المتأرجح لمغادرة المطبخ بعد ذلك، فيصطدم الباب بصينية نادل قادم من الاتجاه المعاكس، وتنسكب زجاجة النبيذ الأحمر التي كان يحملها على فستاني الأزرق الفاتح، فأصرخ بغضب في وجهه: يا لك من غبي! هل رأيت ماذا فعلتَ بفستاني؟

حيث يجن جنوني ولا أدري من أين أتى هذا المعتوه الذي يتمتم قائلًا: أنا.. أنا.. آسف..

ثم يُخرج منديلًا ورقيًّا من جيبه وهو يُبْدِي رغبته في تنظيف الفوضى التي تسبب فيها، لكنني لا أسمح له بِلَمس فستاني. فيُهرع «جو» لإنقاذ الموقف، إذ يمسك النادل بغضب عارم من كتفه ويأمره بحمل أغراضه والرحيل على الفور، ثم يقوده إلى الخارج. وحين يُلْقي عليَّ النادل المرتبك نظرة أخيرة.. أفقد القدرة على الكلام.. فأنا أعرف هذا الوجه، إنه يرافقني منذ أيام، إنه محفور في ذهني، على رغم أنه ضائع في خلفية النسيان: جول!

أسمع أحدهم يقول:

لقد استعادت وعيها!

فأشهق بقوة وأنا ألفظ الماء بينما يلتف رفاقي المذعورون من حولي، وأتحسس الرمل الناعم بأصابعي في حين يعميني ضوء الشمس..

هل أنت بخير يا كلارا؟

دعوها تتنفس!

اعتقدتُ أنها ماتت..

بطريقة عجيبة تعود الألوان لتَصْبُغَ عالمي الرمادي على رغم أنها ما زالت غير واضحة تمامًا، ولكنها كافية للتعرف إلى كل فرد من مجموعتي.

إذ يجثو ليف على ركبتيه بالقرب مني، والذي يبدو أنه جعلني أنام في وضعية الأمان الجانبي خوفًا من أن أبتلع لساني. بينما يبدو جميع أصدقائي قلقين، ووجوههم شاحبة وكأنهم التقوا وروح عَائدة من الموت..

فأستعيد وعيي شيئًا فشيئًا في حين تطفو على أديم عقلي ذكرى عينيَّ المتقلبتين اللتين كادتا أن تتسببا في غرقي.. إضافة إلى الهذيانِ الذي زارني

في خلال غيابي عن الوعي والذي كان مزيجًا من مشاهد سبق أن عشتُها في حفلاتي، وعدد هائل من الصور التي استعرضتها ذاكرتي لتقودني إلى تذكر جول، الذي لم يكن سوى نادل موسمي بسيط كان منظم حفلاتي يستعين بخدماته عند الحاجة.

أتساءل ما الذي يفعله هنا، معنا، على هذه الجزيرة؟ ولماذا أخفى عليَّ أننا سبق والتقينا؟ ثم أحاول ألا أبدي انزعاجي وأن أتمالك نفسي.

حين يقول لي أنطوان:

لقد كنتِ محظوظة.

وتضيف إيناس:

لحُسن الحظ أنه كان هناك، فمن دونه ما كنا لنلاحظ شيئًا.

ماذا؟

لا أذكر الطريقة التي رسوتُ بها على بَرِّ النجاة.. وبينما يساعدني ليف على الجلوس لأتمكن من التنفس، أصاب بِنَوْبِةِ سعال بسبب الماء المحتبس في رئتيَّ.

شكرًا يا ليف لأنك أنقذتني، سعيدة لأنك كنت قريبًا مني.

لكنه أجابني:

أنا لم أفعل شيئًا! لقد كنتُ على الشاطئ أجهز زورقي.

ومن دون أن أفهم شيئًا، يبتسم الآخرون فيضيف ليف:

- إن مُنْقِذَكِ يُدعى جول، وهو الشخص الذي يجب عليك شكره.

أتمايل في أرجوحتي قبالة المحيط، والنسمات الباردة المنعشة تتسلل إلى شرفتي، بينما أضع رأسي على وسادة صغيرة وأنا أتأمل المنظر الطبيعي الآسر الذي يبدو كانعكاس شبيه للفردوس. حيث وضعت نظارتي الشمسية لأحاول إراحة عيني ولكن النتيجة كانت مُخَيِّبَةً لأنني ما عدتُ أرى أي شيء تقريبًا، إن عينيَّ تحاولان امتصاص ضوء السماء وكأنني أرتشف القطرات الأخيرة من ينبوع سَيَنْضُبُ عما قريب.

ينبغي لي ألا أقلق، لكنني أتساءل على رغم ذلك كيف بوسعي التغلب على هواجسي؟ وأنا لست أدري طبيعة المرض الذي أعاني منه ومن ثمَّ أتمنى أن يكون هذا الإجهاد البصري عابرًا فحسب.. لم أتمكن من شكر جول على إنقاذه لي من غرق مُحَتَّم، لأن ليف جاء لِيُقَدِّمَ لي الإسعافات الأولية، وبما أن جول تأكد من أنني أعود تدريجيًّا إلى الحياة فلابد أنه استأنف تنقيبه في أعماق البحيرة.

فأشعر أن هذا الفتى ما زال يُشكل لغزًا بالنسبة إليَّ، أتساءل تُرى ماذا يفعل هنا معنا؟ ولماذا رغب في المجيء إلى أستراليا؟ ثم أدرك أنني لم أعد قادرة على الاحتفاظ بتساؤلاتي لنفسي وأنه عليَّ أن أشاركها مع صديقاتي.

فأستفيق من شرودي على صوت يسألني: كيف حالك الآن إذًا؟

لأجد كلًّا من ماري، إلزا وإيناس يلتفون حولي، بينما تمسك إلزا هاتفها الذكي بعصبية، وتعيد تشغيله مرارًا للتأكد من أن شبكة الإنترنت ما زالت معطلة، فأطمئنهن على حالتي الصحية ولو أنني في الحقيقة لست بخير..

ثم أسألهن:

ما رأيكن في جول؟

فينظرن إلى بعضهن قبل أن يقررن أن تجيب ماري أولًا على سؤالي، وهي تقول: لم أَكَوِّنْ أي رأي عن بعد، لأنني أعتقد أن الفرصة لم تسنح للتحدث معه منذ بداية رحلتنا، ومع ذلك فإنني أجد سكونه شبيهًا بسُكون المقابر.

تدافع إلزا عنه، قائلة:

ربما أنه لا يثرثر معنا لكنه سبَّاح ماهر، وأنت يا كلارا مدينة له بالكثير لأنه أنقذك من موت مُحَقَّقٍ.

وهنا تضيف إيناس وهي تنظر إلى الأرض: إنه جذاب إلى حد ما..

فأسألها:

هل أنت معجبة به؟

فتحمر وجنتاها وهي تجيب:

لا، مطلقًا، على العكس فإنه هنالك أمر مزعج بشأنه، إذ أشعر بأن لديه جانبًا مظلمًا في شخصيته، ولديَّ أيضًا انطباع بأنه يُخْفِي علينا سرًّا ما.

أومئ برأسي موافقة، قبل أن أُعَقِّب على حديثها: لقد أجَدْتِ التعبير يا إيناس، ولقد اكتشفت ما الذي يخفيه علينا بالفعل.

يحدقن إليَّ وكأنني أوشك على تفجير قنبلة، بينما ترنو إلزا مجددًا إلى شاشة هاتفها الذكي إذ تَمَكَّنَتْ منها هذه العادة السيئة..

ثم تتعجلني ماري:

هيا قولي ما لديك بسرعة!

فأجيبها:

حسنًا، لقد بدا لي وجهه مألوفًا من البداية، لكنني لم أستطع أن أتذكر أين سبق لي والتقيتُه، حتى عادت بي الذاكرة إلى الوراء.. وأدركت أنه نادل كان يعمل بِدَوَامٍ جزئي عند جو في الأمسيات التي أنظمها في منزل والدي.

كيف؟ هل أنت جادة؟

لماذا لم يخبرنا بذلك؟

أجيبهم قائلة:

لا أعلم، لكن هذا ما يلزمنا اكتشافه...

وهنا تقاطعني إلزا:

كنت متأكدة أنه من المستحيل أن يتمكن من الإجابة عن أسئلة مسابقتك! لقد أقدم على الغش ليفوز بلا ريب!

اتفقنا جميعًا على هذا الرأي حتى ساد الصمت بيننا، صمت لا تكسره سوى زقزقة العصافير، ثم يخرج أنطوان من البيت الخشبي المقابل لنا، وهو يرتدي سروالًا قصيرًا ضيقًا، وعضلات صدره برزت أكثر بفضل التمارين الرياضية الجديدة التي يحرص على اتباعها؛ فنتأمل كونه وسيمًا للغاية..

ثم تقول ماري مازحة:

سيروقني أن أعيش معه قصة حب.

فنضحك مِلْءَ قلوبنا.

لأحثها قائلة:

وما الذي يمنعك من ذلك؟

فتجيبني:

أَلَمْ تعودي معجبة به؟

ليس بعد الآن، ساتركه لك فأنا أشعر أنني ارتكبت خطأ بإحضاره إلى هنا، كما اتضح لي أنه ليس هناك أي تقارب بيني وبينه.

وعندما تسألني إيناس:

ما الذي تَنْوِينَ فعله بخصوص جول؟

أجيبها:

أولًا علينا أن نلزم الصمت. فلا ينبغي أن يأخذ حذره منا لذا يجب أن نستمر بالتصرف بطريقة طبيعية وكأن شيئًا لم يكن، بينما نحاول أن نعامله بلُطف شديد لنشجعه على خوض نقاشات معنا ومن ثمَّ نتمكن من معرفة دوافعه...

فتقاطعني إيناس:

لحظة! وماذا لو كان هو المسؤول عن كل المصاعب التي تعرضتِ لها؟

أدير رأسي صوبها وأنا أحملق فيها بذهول: ماذا تقصدين؟

أقصد أنك من بداية هذه الرحلة والمتاعب ترافقك ببساطة.

نتبادل النظرات، وكل واحدة منا تسترجع الأحداث التي مررنا بها.

لتتابع إيناس وهي تحصي بأصابعها المشكلات التي حدثت معي: أولًا العنكبوت التي فرت من الحوض الزجاجي بفندق خليج بايرون، لتَحُطَّ بطريقة غريبة على ملاءتك، ثانيًا جواز سفرك الذي اختفى، وثالثًا الهوائي الرئيسي وكابل الإنترنت اللذان تعرضا للتخريب مما تسبب في قطع الاتصال بالعالم الخارجي.

وهنا تنتابني الحيرة.. إذ إنني لم أفكر من قبل في احتمالية أن تكون هذه الأحداث مُدَبَّرَةً..

فتعلق ماري:

أنت تعانين من جنون الارتياب يا إيناس! لا دليل على نيَّة إحداث الضرر بكلارا عبر كل هذه الحوادث، ثم ما الذي سيدفع جول إلى وضع عنكبوت في سرير كلارا، وهو يعلم علم اليقين أن سُمَّهَا قاتل وبعدها يقوم بإنقاذها من الغرق؟ إن تحليلك للأمر غير مُقْنِع.

تتدخل إلزا قائلة:

ربما بعدما فشلتْ محاولته الأولى فَكَّرَ جول في أنه يحتاج إلى إبعاد الشبهات عنه قبل أن يحاول إيذاء كلارا من جديد، كما أنه بإنقاذه لها من الغرق قد حظي بفرصة تجنب الاشتباه بها مطلقًا.

أسألهن:

هل تعتقدن بجدية أنني في خطر؟

حتى يَعُم الصمت مجددًا، ونحن نفكر للحظات بينما تسري رعشة قوية في جسدي وأنا أسمع ماري تقول ما توصلتْ إليه بعد طول تفكير: ما دام الشك قائمًا فيجب ألا تظلي برفقته وحدك أبدًا!

انتظروني!

يستدير أعضاء المجموعة بينما ألحق بهم لاهثة، فيسألني ليف في تَوَجُّسٍ:

هل تعتقدين أن هذه الفكرة جيدة يا كلارا؟

لأجيبه:

لا تقلق، لقد نمتُ كَجُرذ وأنا على أتم الاستعداد لمُرافقتكم.

حيث كنا قد خَطَّطْنَا سابقًا لتخصيص هذا الصباح للصعود إلى البركان، وأنا لم أكن لأفوت هذه المغامرة بأي حال من الأحوال. إذ أعتقد أن غياب الإنترنت يجبرني على الخروج من قوقعتي. كما أواصل الابتسام منذ ذلك الحين كي أجعل الآخرين يشعرون بالاطمئنان وأنا أتظاهر أن رؤيتي لا تُعيقني.

ثم أمشي بتُؤدة وحذر كي أتفادى التعثر بالأحجار المتناثرة على الطريق التي لا أستطيع رؤيتها جيدًا، وإنما أميز أشكالًا وألوانًا على جانبي طريقنا بالكاد وسط الهالة المضيئة التي تُشَتِّتُ رؤيتي. لقد تعودتُ على أن أرى محيطي بالنظر من الجانبين في الفترة الأخيرة.

لكن جول يمد لي غصنًا منكسرًا كي أستخدمه كَعُكَّازٍ قائلًا:

هيا، خذي هذا.

فأتردد في إمساك الغصن وأنا أخشى أن يشعر بِفَزَعِي، لكنه يضيف مُلحًّا وهو يتجنب الإشارة إلى مشكلة الرؤية لديَّ في لطف بالغ:

بوسعك التَّوَكُّؤُ عليه في خلال صعودك.

ثم يغمز لي أو هكذا ظننت فقد تكون لديَّ انطباع بأنه ليس شخصًا مغفلًا، لكنني أخذت العصا منه بينما أتتبع خطى رفاقي وهو يسير خلفي مباشرة مما جعلني أتساءل تُرى ماذا يريد مني؟ وعمَّ يبحث بالتحديد؟

وفي ذلك الحين يتقدمنا ليف رفقة ويندل وهو مرشد من السكان الأصليين ممن يعملون في الفندق، ويمتلك معلومات لا نهائية عن طبيعة النبات والأحياء البرية التي تحيط بنا، حيث كان يشير إلى الشُجيرات الكثيفة التي نجد مشقة في العبور من خلالها، ويقول:

هذه أوراق الباندانوس، إنها قوية، طويلة وتُستخدم في نَسج السلال وصنع القبعات.

وها نحن نبدأ في الصعود إلى البركان الذي يتطاير الدخان من قمَّته مما يزيدنا حماسًا لعبور المسار الذي يمر عبر طبقات متتالية من الحِمم المتجمدة.. بينما تختفي النباتات ويحل محلها منظر غريب ساحر.

تتبع إيناس خُطى ويندل وليف لأنها ترغب في أن تكون أول من يصل إلى فوهة البركان، وخلفها ماري وإلزا اللتان يتوسطهما أنطوان حيث تحاولان جذب انتباهه بدلالهما المصطنع وأسئلتهما الغبية، على أمل أن تحظى إحداهما بإعجابه، بينما نتقدم بوَتيرة جيدة على رغم الحرارة غير المحتملة والشمس القاسية التي تكاد تحرق بشرتنا، مع أننا نضع واقي الشمس، ولهذا كنا نأخذ استراحات منتظمة لنشرب الماء ونُرطب بشرتنا قبل أن نستأنف الصعود تحت إشراف مرشدنا.

ونظرًا لكون البركان عبارة عن طاقة حرارية ناشئة من الطبيعة، فقد كانت الحرارة تنبثق منه بشكل رهيب.. حيث يفاجئنا الغاز الحارق الذي يبشرنا بوصولنا الوشيك إلى القمة البركانية، علاوة على رائحة الكبريت النفَّاذة المنبعثة من الحمم والتي تخترق أنوفنا وحناجرنا في الحال.

أما أنا فأسير وحيدة رفقة أفكاري التي جعلتني أدرك أنني لم أعد مهوَّسة بانقطاع الإنترنت، وكأنني في مرحلة الاستشفاء من الإدمان على إنستغرام واليوتيوب، فهنا على هذه الجزيرة الفردوسية الضائعة المنعزلة عن العالم، وفي خِضَمِّ انتظار قدوم محتمل لطائرة يمكنها جلب قطع غيار لإصلاح الشبكة، فقد صارت اهتماماتي مختلفة، على رغم أنني ما زلت قلقة بخصوص جمهوري، فلا أعرف ما إذا كان متابعو حسابي قد هجروه، لكنني لم أعد أشعر بالتوتر كما كنت من قبل، وكأن ثمة شيء لا أدرك ماهيته بعد يتحرك بداخلي.

حذاري!

يقولها جول وهو يساعدني في الثبات على الأرض واضعًا يده اليمنى على وجنتي كي يحمي رأسي من الارتطام، حيث انزلقتْ قدم إيناس على الطريق

المُتَعَرِّجِ في أعلى البركان مما تسبب في انهيار صخري بسيط، جعلها تتشبث بليف بقوة كي تتجنب السقوط.

يا إلهي!

صرخت في هلع بينما أستشعر صدر جول وهو يحميني كَدِرْعٍ واقٍ من وَابِلِ الأحجار المتطايرة علينا من فوق، إنه يُضحي بنفسه من أجل سلامتي. أما على يسارنا فيقف كلٌّ من أنطوان، إلزا وماري في مأمن من هذا الانهيار الصخري، وبمجرد توقف تساقط الحجارة يسترخي جول أو درعي الحامي على ما أظن، ويتدحرج على جانبه كي يتمكن من التنفس بعُمق.

ثم يسألني:

كيف حالك؟

بينما يرفع إبهامه لكي يطمئنني أننا بخير، فأنهض وأنا أنتبه إلى أن قميصه قد تمزق من الخلف، وألمح قطرات من الدم تنساب عبر القماش، فأقول له:

إنك تنزف!

لا تخافي فهذه ليست سوى خدوش بسيطة، إن هذه الصخرة قد تَكَوَّنَتْ من الصُّهارة البركانية، ولهذا فإن الأحجار التي انهارت عليها هي أَخَفُّ وزنًا مما تظنين.

فأرفع قميصه بِحَزْمٍ وسرعان ما أكتشف تضرر جلده بِفِعْلِ شظايا الصخرة، بينما ينضم إلينا الرفاق في ذلك الحين ويُخْرِجُ ليف من حقيبة ظهره ضمادات ومُطَهِّرَ جروح.

فتبكي إيناس، قائلة:

آسفة، لا أعرف كيف حدث هذا، لقد انزلقتْ قدمي وفقدتُ توازني...

لكن ليف يقاطعها قائلًا:

لحُسن الحظ أنك تشبثتِ بي، فَلَولا ذلك لَكُنْتِ تدحرجتِ على طول الطريق وسقطتِ في الأسفل.. لقد تجنبنا السيناريو الأسوأ.

لم يظهر على جول الألم في أثناء تلقيه للإسعافات، وإنما بدا قويًّا وملامح وجهه هادئة في أثناء استخدام ليف لقِطعة قطن مبللة بالكحول الطبي بهدف تَطهير خدوشه.

أكاد أحس بالخجل لأنني شككتُ فيه، فكيف بوسعه تحمل كل هذه المخاطر من أجلي، لو كان هدفه الخَفي هو إلحاق الأذى بي؟ وقررت أنه عليَّ أن أجد تفسيرًا لهذه الحالة المُحَيِّرِةِ مهما كلفني الأمر قبل أن أفقد عقلي.

وبعدها أقترب منه وهو يرتدي قميصًا نظيفًا أعاره له ليف، ثم أدنو من أذنه، وأهمس بكلمة واحدة فقط:

شكرًا.

لم يمنعنا الحادث من الوصول إلى قمة البركان، لأن رغبتنا في اكتشافه كانت قوية للغاية، خاصة أنه لم يسبق لأيٍّ منا أن عاش تجربة مماثلة. وبينما يترامى إلى مسامعنا ضجيج متواصل، والذي يُنْبِئُنَا بأن هناك دوّامات عنيفة تجعل قاع الفوهة يهتز بشدة، نلمح نهرًا من الحِمَم التي جعلت الهواء مُشْبَعًا برائحة الكبريت، والتي أظن أن أنطوان لا يتحمل رائحتها حيث إنه يضع منديلًا على أنفه للتخفيف من حِدَّتِها.

ثم ترتفع في السماء سُحُبٌ بيضاء تتخللها تَدَرُّجاتٌ رمادية تحجب ضوء الشمس أحيانًا، وكأننا نقف الآن على بوابة الجحيم بينما نتبع خطى مرشدنا ويندل الذي يبدو أنه معتاد على هذه الظاهرة، لدرجة أن دَوِيَّ الأرض لا يُؤثر على هدوء أعصابه.. إذ إن سطح الأرض يبدو هَشًّا وثمة تشققات عميقة تأخذ هيئة أفواه وحشية على أهبة الاستعداد لابتلاعنا.

أستعمل عصايَ الخشبية لِأَتحسس الأرض الممهدة تحت قدميَّ، حيث إن تصاعد الأدخنة وحجب ضوء الشمس يؤثران على رؤيتي الضعيفة، وأخشى ما أخشاه هو أن أتعرض لحَادث مشابه لما تعرضت له إيناس. وأخيرًا، بعد ساعتين من الصعود نصل إلى الفوهة التي يضيء جدرانها الداخلية وَهَجٌ أحمر وبرتقالي، لتظهر الحمَمُ البركانية فجأة من نتوء طبيعي، حمم تشبه بحرًا هائجًا بأمواج لزجة مُحَمَّلَةٍ بقَنابل بركانية صغيرة.. يا له من مشهد رائع ومرعب في نفس الوقت!

إن الطبيعة تَسْتَعْرِضُ قُوَّتَهَا وسَطْوَتَهَا، مما يُوَلِّدُ بداخلي انطباعًا بأنني لستُ سوى نملة صغيرة أمامها.. الأمر الذي يجعلنا نتجمد في أماكننا أمام أنهار الحمم التي تحاول الخروج من خَزَّانِ الصهارة لتندفع صوب منحدرات البركان. كما تنبعث حرارة شديدة من الأعماق تجعل العرق ينساب من كل مسام أجسادنا حتى يبلل ملابسنا. وكأن الشمس المتوارية خلف الضباب الكثيف تنتحب على صفائها الذي تعكر بِفِعْلِ هذا الغليان المستمر وتلوح كَبَدْرٍ شاحب.

نأخذ هواتفنا ونشرع في التقاط صور تفشل في أن تعكس الواقع الحقيقي، حيث لا تُظْهِرُ سوى بُقع حمراء على خلفية سوداء، أما صور السيلفي فَيَشُوبُهَا الظلَام ولا تعكس جمال ما نراه بدورها، لذا فقد كانت

عديمة الفائدة لكننا سنُشاركها على حساباتنا في جميع الأحوال لنقول: «لقد ذهبنا إلى هناك بينما لم تتمكنوا أنتم من ذلك».. حيث إننا لم نعد نلتقط الصور بهدف تخليد الذكريات، وإنما صرنا نخوض سباقًا محمومًا للتباهي والتفاخر وعَقْدِ المقارنات، إلى حد أننا اعتدنا على التقاط صور للأطباق التي نتناولها في المطاعم، أو للعصائر الفاخرة المزينة بعناية والتي نحتسيها في أمسياتنا. مما يجعلني أتساءل لمَ لا نكتفي بالاستمتاع باللحظة الراهنة أمام هذه الطبيعة الخلابة ببساطة.

وبالفعل أتوقف عن التقاط الصور، وأخبئ هاتفي وكأنني أزيل هذا الحاجز الذي يَحُولُ بيني وبين الحياة الحقيقية. فربما غدًا، الأسبوع المقبل، في غضون شهر أو بعد عام سأفقد بصري، ولذا عليَّ أن أرى بعينيَّ ما دام أنه بوسعي أن أرى دون عدسة هاتفي، أريد أن أُقَدِّرَ نعمة تأمل الجمال الطبيعي رغمًا عن المرض البصري الذي أعاني منه، وحتى لو كانت رؤيتي ضبابية، ولو كنت لا أميز الأشكال والألوان المحيطة بي، فإنني سأستغل قدرتي على الإبصار إلى آخر شعاع نور ألمحه قبل أن ينطفئ نور عينيَّ إلى الأبد..

وبينما كانت الرياح كفيلة بإبعاد الأبخرة الضارة حتى نلمح من بعيد البحيرة الزمردية وهي تلمع كَتَاجٍ مُرَصَّع. تسيل دمعة على خدي وأنا أتذكر أستاذ اللغة الفرنسية الذي حدثنا عن متلازمة ستاندال، هذه القصة التي يرويها التاريخ عن الكاتب الكبير ستاندال الذي انهار باكيًا وهو يكتشف الروائع الفنية، المنحوتات العظيمة واللوحات المذهلة التي جعلتْ من فلورنسا مدينة النور. وفي هذه اللحظة تغمرني الأحاسيس ذاتها، حيث شعرت وكأن الطبيعة تحتضنني، تغمر كياني وتكفيني لأكون سعيدة.

ثم أدير رأسي نحو الجهة الشمالية حيث يبسط البركان ذراعيه حول غابة خصبة، وألاحظ أن سحابة سوداء تسقي الأشجار والنباتات بِرَذاذٍ من المطر، ويتخللها قوس قزح الذي يُلَوِّنُ السماء هنيهة قبل أن يختفي في عرض المحيط.

فيخبرني مرشدنا وهو يشير إلى بقعة خضراء:

هذه إحدى أراضي السكان الأصليين.

فأسأله: وهل ما زلتَ تعيش هناك؟

ليجيبني:

لا، لا، لم يعد ويندل يعيش هناك.

ثم يضحك وهو يتحدث عن نفسه بضَمير الغائب، فأعتقد أنني قلت شيئًا أحمق للتو لكنه يضيف:

إنها أرض مُقَدَّسَةٌ، أرض أجدادي الذين ترقد جثامينهم هناك في سلام، أما أنا فإنني أعيش في بيت خشبي قريب من الفندق.

وهل هذه مقبرة؟

ينير وجهه فأدرك أنه لا ينزعج من أسئلتي، ويقول:

إن الطبيعة في حد ذاتها مقبرة، وحيثما ذهبتِ يوجد أسلافنا المُتَوَارُونَ في الكهوف والأشجار، إن أرواحهم حاضرة في كل مكان، وكل ما في الأمر أن أجسادهم ترقد هناك، إنه موقعٌ خاص بالطوطم.

فأهز له رأسي وأنا أتظاهر بأنني فهمت كلامه، إلا أن ويندل يدرك الأمر فيشرح لي:

الموقع الخاص بالطوطم هو مكان تحيا به أرواح صغيرة، ففي معتقداتنا نرى أنه ثمة رابط بين الحيوانات بأنواعها وبين الإنسان، وأن كل فرد منا مرتبط بحَيوان خاص به يُسمى الطوطم وكأنه نوع من تناسخ الأرواح.

وهل لديك حيوان طُوطم خاص بك؟

أجل، مثلي مثل الجميع هنا، حياتي مرتبطة بعَنكبوت، ولهذا فأنا أتسلق الصخور مثلها، ولا أخشى المرتفعات إذ تتمكن يداي من الالتصاق بالجدران الصخرية وأنا أصعد عليها.

ولكن كيف عرفتَ أن حياتك مرتبطة تحديدًا بعَنكبوت؟

إنها مَلَكَةٌ بداخلكِ، ففي لحظة معينة من حياتكِ يظهر حيوان الطوطم الخاص بك وتتعرفين عليه دونما حاجة إلى تفسير، وكأنه أمر بديهي.

أَلَمْ يكن أسلافك يمارسون الصيد بسَبب هذه الرابطة القوية بينهم وبين الحيوانات؟ كيف كانوا يحصلون على غذائهم دون الاضطرار إلى قتلهم؟

إن قتلهم للاقتيات عليهم لا يضر بالطبيعة، لأن الأرواح الصغيرة تتكفل بمهمة الاستنساخ، ولهذا فلزامًا علينا أن نحافظ على هذا الموقع، لأن من دونه ستنقرض تلك الحيوانات والبشر أيضًا.

أنظر إليه فيِ دَهَاءٍ لأنني أعلم مسبقًا أن سؤالي التالي سيكون في غير محله:

هل من الممكن أن أزور هذا المكان المُقَدَّس؟

فيضحك للحظات طويلة بلا توقف وهو يُظهر أسنانه البيضاء مجددًا، ثم تصبح ملامحه قاسية فجأة وتخترقني نظراته الجدية وهو يجيبني بشكل مباشر:

لا، أبدًا!

بالرغم من التوقعات التي تقول إن المؤن الغذائية لن تكفينا سوى لأسبوعين أو ثلاثة، فإن مطعم الفندق لم يكن ملتزمًا بترشيد الوجبات، إذ إنه في كل وجبة يُقَدِّمُ مأدبة ضخمة تتوافق مع عادات وأذواق كل السياح باختلاف بلدانهم. أما فيما يخص المُقبلات، فإنهم يقدمون الكثير من الخضراوات واللحوم المجففة حيث تكون الأطباق متنوعة، غنية وشهية وتحتل مساحة كبيرة من الطاولات حتى إنه لا يتبقى مكان كافٍ للفواكه والحلويات العديدة.. وكأن إدارة الفندق لا يعتريها القلق، وقد حاول الموظفون طمأنتنا بقولهم إن هناك تحسنًا محتملًا للأحوال الجوية في القارة، ولهذا فإن تزويدنا بالمؤن لن يتأخر.

أما السياح فكانوا يلقون ببقايا طعامهم في سلة المهملات في بهجة واضحة ولا تخيفهم احتمالية حدوث نقص في الطعام. كما يلتهم أنطوان الموز، بينما تقع ماري وإيناس في غرام الفطور المتأخر الذي يتكون من البيض المخفوق، اللحم المقدد، الفاصوليا البيضاء المطبوخة بصلصة الطماطم، والنقانق الصغيرة المشوية، أما جول فيملأ أطباقه في كل الوجبات بالبطاطس المقلية التي يضيف إليها شرائح من الجمبون، أو أوراك الدجاج حسب مزاجه، بينما أنا وإلزا نفضل الأطباق التي تعتمد على الأسماك والمحار، كما أنني أحب أيضًا تذوق الجمبري مع صلصة المايونيز والأفوكادو.

ولكن الأمسيات لا تسير بالشكل الذي تخيلناه قبل مجيئنا إلى هنا، حيث لا توجد أي جلبة في الليل أو دي جي لإضفاء الحماسة على الأجواء، فالهدوء يعم الجزيرة فور غروب الشمس، ونبدأ نحن الاعتياد على التعايش بتناغم مع الإيقاع الذي تفرضه الطبيعة.

فقد صرنا ننظم سهرات حول النيران التي نوقدها على الشاطئ بهدف التسلية، حيث إن كلًّا من ماري، إلزا، إيناس، أنا وجول نستمتع بهذه السهرات ونحن ممدون على الرمل نتأمل النجوم.

كما يجلس ليف بالقرب منا وهو يعزف على قيثارته ألحانًا عذبة تتصاعد مع دخان النار صوب السماء. حتى تتقلص اختلافاتنا شيئًا فشيئًا ونصبح جميعًا متساوين في ارتداء الثياب الصيفية العادية، ففي ظل غياب الإنترنت تختفي

رغبتنا في الظهور والتفاخر بعدد متابعينا على مواقع التواصل الاجتماعي، لِتَحُلَّ محلها رغبتنا في الاستمتاع والمرح مع بعضنا بالعودة إلى ممارسة ألعاب بسيطة كالكرة الطائرة، ركوب الأمواج أو رياضة القُرص الدَوَّار.

صرت أكتشف شخصية إيناس أكثر ويروقني تجاذب أطراف الحديث معها، حيث كنت أجد أن قصة حياتي تبدو غير جديرة بالاهتمام مقارنة بالمآسي التي عاشتها. خاصة عندما لاحظت تأثرًا واضحًا في صوتها، وهي تقول:

كما أخبرتك سابقًا، فإن أختي التي تكبرني بأحد عشر شهرًا تعرضتْ لإصابات بالغة إثر حادث سير، وهي حاليًّا فتاة هزيلة طريحة الفراش تعتمد على التغذية بالمحاليل الوريدية. وحين يتخلل هدير الأمواج حديثنا، وتعانق نظراتنا الأفق الممتد أمامنا تهمس لي:

صحيح أنني وأختي لسنا توأمًا، لكننا متقاربتان ومختلفتان للغاية في نفس الوقت، فأنا أعتقد أنني ذات روح مرحة ومنفتحة على الآخرين، في حين أن أختي متحفظة أكثر، لا تثق بسهولة ولم تكن ترافق سوى القليل من الناس قبل الحادث.

لقد جعلتني أدرك كم أن حياتيهما مرتبطتان وعلاقتيهما خاصة جدًّا، ولهذا فإن معاناة إحداهما تُشَكِّلُ عبئًا ثقيلًا على الأخرى.. ثم أضافت قائلة:

إن هذه المأساة قد تسببت في مأساة ثانية، إذ لم تحتمل أمي رؤية ابنتها الكبرى وهي تتحول إلى شبح فجُن جنونها وأصيبت بانهيار عصبي حاد.

كنت أرسم أشكالًا غريبة على الرمل وهي تتحدث لأنني لا أقوى على النظر في عينيها، وبينما أتمنى أن تخفف هذه الرحلة من آلامها، تتابع الحديث بقولها:

لقد عثرت الشرطة على أمي ذات مساء في سيارتها بعدما أوقفتها على جانب الطريق، إذ إنها لم تكن تعي ماذا تفعل هناك عاجزة عن الرد على أسئلتهم.. حيث وصف لها الأطباء النفسيون أنواعًا كثيرة وكميات كبيرة من الأدوية المضادة للاكتئاب، تلك التي يصفونها لمرضاهم كي يظلوا جالسين في جمود وهدوء على أرائكهم في انتظار نهاية اليوم.

تتوقف إيناس عن الحكي للحظة لحاجتها إلى التقاط أنفاسها، بينما ألتزم الصمت لأننا نملك وقتًا كافيًا للتحدث معًا، ثم تستأنف:

مذ ذاك وأنا ألعب دور الأم والممرضة من أجل هذين الشبحين اللذين لا تزال أجسادهما على قيد الحياة، بينما يُمضي أبي أيامه في العمل كي يتمكن

من إعالتنا.

وفي الوقت نفسه يصفق الآخرون لجول وأنطوان اللذين يستمتعان بالقفز فوق لهيب النار، حين نتأملهما قليلًا أنا وإيناس التي تقول:

أبي هو من اقترح عليَّ المشاركة في مسابقتك، كي أتمكن من الابتعاد لبضعة أيام عن أجوائنا العائلية الكئيبة.

هأنا أفهم الآن حرصها على الإجابة عن أسئلة مسابقتي، ورغبتها في الفوز التي كانت تفوق رغبة باقي المشاركين. فأعرض عليها الابتعاد عن الجلبة التي يُحدثها الآخرون:

ما رأيك في أن نسبح؟

إنها فكرة جيدة.

وحين نستكمل نقاشنا بعيدًا عن المجموعة في مياه البحر الدافئة الرقراقة، تقول لي مباشرة:

عليَّ أن أعترف لك بشيء.

أنا أصغي إليك.

إنها تبدو منزعجة.. لكني لا أعرف بماذا تريد أن تخبرني، ثم تردف:

إن الشكوك التي ساورتنا بخصوص جول ما زالت تؤرقني.

فأجيبها:

يجب ألا نتوقع الشر في كل مكان، أعتقد أننا تسرعنا في حكمنا.. فلا تنسي أنه قام بإنقاذ حياتي مرتين.

لكنها تظل صامتة ولا تتوقف عن التحديق إلى وجهي، بينما أسمع رفاقي وهم منهمكون في الغناء مع ليف على الشاطئ بحماس، ثم تقول:

أعتقد أنه يجب عليَّ أن أخبرك بما اكتشفتُهُ.

تُشعرني رغبتها المُلِحَّةُ في مشاركة هذا السر بالخوف، لكنها تتردد ويبدو عليها الحرج، فأشجعها بإيماءة من رأسي كي تكمل:

أنا.. قمت بتفتيش بيته الخشبي.

ولكن ما الهدف من ذلك؟ لقد قمنا بِطَرْحِ احتمالات لا تستند إلى أي دليل فحسب.

أنت مخطئة، لقد كنتُ متأكدة من أنه علينا أن نأخذ حذرنا من هذا الفتى، وأظن بأنني محقة في ذلك.

أرنو إليها بذُهول، ونُلقي نظرة على الشاطئ وكأننا نخشى أن يصل حديثنا إلى جول بالرغم من أنه بعيد عنا.

لقد قام بالغش.

فأسألها مندهشة:

كيف عرفتِ هذا؟

لقد تفقدتُ هاتفه الذي كان مُخبئًا تحت وسادته، ووجدتُ فيه صورًا لورقة كُتِبَتْ عليها الإجابات الصحيحة على أسئلتك، فقمتُ بالتقاط صور للورقة التي تُثْبِتُ غِشَّهُ لأحتفظ بها كَدَلِيلٍ في هاتفي.

أحتاج إلى رؤية هذه الصور! إنني أرغب في اكتشاف طريقة حصوله عليها، إن هذا يفسر بوضوح قدرته على الإجابة بسرعة فائقة عن سؤالي الأخير.

بالضبط، لقد استغرقتُ أنا عشر دقائق قبل أن أتوصل إلى الإجابة وأتأكد من أنها الإجابة الصحيحة، إن الإجابة سريعًا عن هذا السؤال أمر شبه مستحيل.

وحينما انتهت أمسيتنا وقررنا العودة إلى بيوتنا، تحجَّجتُ للمجموعة بأنني نسيت نظاراتي في بيت إيناس لأرافقها إليه، وعندما وصلنا أعطتني هاتفها لأطَّلِعَ على الصور التي الْتَقَطَتْهَا، فأتعرف بسهولة على الورقة التي قمتُ بطَبع أسئلتي وأجوبتي عليها، كما أن حزام إحدى حقائب يدي يظهر في إحدى زوايا الصور التي وجدتها إيناس في هاتف جول. فأُعَلِّقُ قائلة:

ثمة طريقة واحدة ليستطيع نَسْخَ ورقة الأسئلة والأجوبة الخاصة بمسابقتي هكذا دون علمي.

فتسألني إيناس:

أية طريقة؟

من المؤكد أنه قام بالبحث داخل حقيبة يدي في خلال الأمسية الأخيرة التي أقَمْتُها في بيت والدي مباشرة، قبل بداية المسابقة التي أعلنت عنها للتو على مواقع التواصل الاجتماعي، وبحُكم أنه كان نادلًا هناك فقد تمكن من الدخول إلى كل غرف المنزل ثم انتظر الوقت المناسب لِيُقْدِمَ على فعلته.

إذًا فلا مكان له بيننا!

أنت محقة، ولكننا لا نملك أية وسيلة لإعادته إلى فرنسا، لذا علينا أن نستغل وجوده معنا ونفهم دوافعه.

إنها لعبة خطيرة يا كلارا، وأنا ما زلت مقتنعة بأنه يحقد عليك لسبب ما.

لم أكن أمتلك رأيًا حاسمًا كرأي إيناس بخصوص هذه المسألة، لأن جول قد أنقذ حياتي، وأنا أرغب من كل قلبي أن أستمر في الاعتقاد بأنه شخص طيب، فأعترف لإيناس بذلك قائلة:

أنا أجد صعوبة في فهم غموضه، ولهذا يجب علينا أن نكتشف ما الذي يريده مني، وما إذا كان يريد إلحاق الأذى بي أم لا.

* * *

هيا إلى العمل!

أقولها بيني وبين نفسي بينما أقرر الإمساك بِزِمام حياتي من جديد بعد المرور بتلك الأيام الحافلة بالأحداث، فأستيقظ وأنا عاقدة العزم على العودة إلى العمل، إذ إنه من الضروري أن أخضع لجلسة تصوير إذا كنت أرغب في الحصول على عائد نافع من هذه الرحلة.

أطلب المساعدة من رفيقاتي، فتسعد إلزا وإيناس بالمشاركة في مخططاتي، أما بالنسبة إلى ماري فقد عرفتُ أنها قد ذهبتْ مبكرًا في نزهة مع أنطوان، حيث تقول إلزا باستهزاء: حسنًا، إنها لا تضيع الوقت كي تتقرب منه.

فأسألها:

هل تشعرين بالغيرة؟

لكنها تهز رأسها نافية:

لا، مطلقًا، أنا أشاطركِ الرأي يا كلارا، إن أنطوان مُمِلٌّ لدرجة الموت!...

وهنا تقاطعها إيناس:

أنت تقولين هذا لأنه لم يقم باختيارك أنت.

أبدًا، لقد استوعبتُ اختلافاتنا حين تعرفتُ إليه من كثب، وأنا لا أشبه ماري.

ماذا تقصدين؟

أقصد أنها لا تكترث مطلقًا بشخصية أنطوان، لأنها ترغب فقط في أخذه منك يا كلارا.

هل تفعل ذلك لِتُقَلِّدَني؟

تبتسم إلزا وترد:

أو ربما لأنك سرقتِ منها صديقها السابق؟

ما حدث قد صار من الماضي وهي لا تحمل لي أي ضغينة بسبب ما فعلتُهُ.

لكن إلزا تسألني:

هل تصدقين كل ما يقال لك؟ كنت أظن أنك تملكين بَصِيرَةً مُسْتَنِيرَةً.

أشرد قليلًا وأنا أتساءل في داخلي هل من الممكن أن تكون ماري حاقدة عليَّ في أعماقها؟

فتعلق إيناس:

يبدو أنهما واقعان في الحب على أية حال، لقد صادفتهما قبل قليل وهما يبدوان ثنائيًّا مميزًا وكأنهما خُلِقَا ليكملا بعضهما.

لكن إلزا تتدخل قائلة:

هذا بالضبط ما تود ماري أن تجعلنا نفكر فيه، فكلما أظهرتْ لنا أنها فتاة سعيدة، كلما ندمت كلارا على قرارها بالتخلي عن أنطوان.

لكنني أعقّب على ذلك تشكيكًا فيما تقوله إلزا: سيكون هذا أمرًا مفاجئًا بالنسبة إليَّ؛ لأنها إذا كانت ترغب في الانتقام مني فعليها أن تعثر على طريقة أخرى.

فتقول إيناس دون تفكير:

طريقة أخرى؟ مثل وضع عنكبوت في سريرك؟

لا، لا أستطيع أن أُصَدِّقَ ذلك.

لن تستطيع صديقتي المفضلة أن تخدعني وتُقدم على إيذائي بهذا الشكل أبدًا.

نتجه بعدها إلى الشاطئ ونحن نحمل إحدى حقائبي الكبيرة التي تحتوي على هدايا وصلتني من ماركات الملابس الشهيرة، بينما أترك آلة تصويري الغالية في عهدة إيناس، وأنا سعيدة لأنني سأؤدي دور العارضة من جديد حيث إن الأزياء راقية جدًّا. أما إلزا فتهتم بمكياجي، تسريحة شعري والتفاصيل التي علينا أن نخفيها قبل التقاط الصور. وبالاستعانةِ بِقطع خشبية نقوم ببناء هيكل

خيمة هندية كي نضع مناشفنا عليه، وهكذا أحظى بما يشبه حجرة صغيرة لتغيير ملابسي قريبة من موقع التصوير الذي اخترناه في الهواء الطلق.

لقد قمنا بالتقاط عدة صور بعناية فائقة وفي أوضاع تبدو تلقائية مع أنها متعمدة في واقع الأمر، حيث إن الإضاءة مضبوطة جيدًا ونسلطها على الأزياء التي اخترناها بدقة.. فهذا الأمر يتطلب ساعات من العمل، إضافة إلى الوقت الطويل الذي نقوم فيه بِتَنْقِيحِ الصور ومحو العيوب منها، مثل حَبِّ الشباب، انتفاخ البطن أو ترهل الفخذ، إنني أبذل مجهودًا كبيرًا في سبيل بلوغ القمة. فقد تابعت برامج تعليمية على يوتيوب لأتعلم كيفية تعديل الصور، خاصة الصور التي تتعلق بالأزياء، وأمضيتُ ساعات في التدرب قبل أن أصل إلى نتيجة مُرْضِيَةٍ، حيث كان من الممكن أن يَفْتُرَ حماسي وأطلب مساعدة أصدقاء شغِفين بالتصوير، لكنني فَضَّلْتُ القيام بهذه المهمة بنفسي.

تتذمر إلزا من الرطوبة المحيطة بنا، والتي تتسبب مع الحرارة في جعل كريم الأساس الذي أضعه يسيل على وجهي، مما يضطرها إلى التحقق من ثبات مكياجي بين كل صورة وأخرى.. لكني اكتسبتُ سُمرة طبيعية في بضعة أيام، وكان لباس البحر يليق بي للغاية. وفي أثناء ضبط إيناس لدرجة نقاء آلة التصوير، كنت أنظر إلى جول الذي يجلس على لوح تزلجه على الأمواج بعيدًا في عرض البحر، بعد عبوره الممر للمائي الذي يصب في البحيرة الصغيرة. حيث يبدو أن الأمواج الرائعة التي تشكل تجويفات في بعض الأماكن لا تثير اهتمامه، وإنما كان يُفضِّل الجلوس في هدوء وهو ينظر صوب الأفق مثل «روبينسون كروزو»[5] عندما كان ينتظر قدوم باخرة لنجدته.

إنه فتى غريب وغامض بالفعل، وقد قطعتُ عهدًا على نفسي بأن أُمِيطَ اللثام عن سرّه لأعرف ما هي الأسباب، التي دفعته إلى الإصرار على أن يكون فردًا من أفراد مجموعتنا في هذه الرحلة.

لكنني لست فتاة صبورة، ولهذا فإن لم أتمكن من حل هذا اللغز فلن يتبقى أمامي سوى حل وحيد ألا وهو المواجهة المباشرة.. فأنا لا أرغب في توريط إيناس وكشف مسألة تفتيشها لأغراضه، ولكني يجب أن أحصل على إجابات لتساؤلاتي بطريقة أو بأخرى.

لقد مرت ساعتان وأنا ألعب دور عارضة الأزياء قبل أن تغطي السحب موقع تصويرنا فجأة، فتضطرنا إلى التوقف عن التقاط الصور، إن أحوال الطقس كثيرًا ما تسوء هنا دون سابق إنذار، ففي دقائق معدودة تحل الأمطار مُحمَّلة بعاصفة تحل محل الشمس الحارقة.. فنجمع أغراضنا بسرعة قياسية

كي نحتمي من العاصفة القادمة، وعلى رغم أنني أترك إيناس وإلزا تسبقاني وأتوقف أنا كي أتأكد من أن جول عائد بدوره إلى ضفة الشاطئ.

إلا أن الأفق الضبابي والأمطار الغزيرة تحول دون رؤيتي لموقعه حاليًّا، أعتقد أنني لمحته بين موجتين هائجتين، وأتمنى أن يتمكن من عبور الممر المائي مجددًا وألا تمنعه التيارات المعاكسة أو تأخذه بعيدًا عن الشاطئ. حتى يظهر ويندل فجأة وهو يركب زورقًا خشبيًّا، ويجدف مخترقًا الأمواج بقوة.. حيث يستمر في التجديف لدقائق طويلة قبل أن يعبر الممر البحري ليقترب من جول، ويساعده في الصعود على متن زورقه.

فأزفر بارتياح بعدما أرى جول سالم وآمن..

إن الأمطار الساخنة تبللني بالكامل وأنا أقف على الشاطئ في انتظار عودتهما، حيث تحتم على جول مساعدة ويندل في التجديف كي ينجحا في اجتياز الممر في الاتجاه المعاكس مستغلين الأمواج التي تدفعهما نحو الشاطئ إلى أن يرسو الزورق على حافة الرمل، ينزل جول من الزورق وهو خائر القوى لينهار على الرمال تحت المطر الغزير.

فأجلس على ركبتيَّ بالقرب منه.. وعلى رغم أن جول يخفي جانبه المظلم فإنني لا أريد رؤيته وهو يغرق، أقول له: لقد خشيتُ عليك من الغرق.

فيلتقط أنفاسه بصعوبة وكأنه يوشك على الاختناق، في حين يلقي ويندل بِلَوح ركوب الأمواج بمحاذاتنا ويقول لجول: في المرة القادمة اسأل أهالي المنطقة عما إذا كان بوسعك النزول إلى البحر، عليك أن تتأكد من ذلك قبل أن تحاول الهيمنة على المحيط.

فيجيبه:

أنا أعتذر إليك يا ويندل.

فيقوم ويندل بدفع زورقه في الماء مجددًا مستعينًا بمجدافه، ثم يمشي على طول الشاطئ ليعيده إلى الرصيف البحري، وحينها أسأل جول: هل أنت بخير؟

فلا يجيبني على الفور، مما يجعلني أفكر في أنه ربما يلوم نفسه لأنه لم ينتبه جيدًا وعَلِقَ في تلك العاصفة المفاجئة.

هيا بنا لنبحث عن ملاذ.

أمد له يدي كي ينهض، ونجلس معًا حول طاولة محمية بمظلة مصنوعة من أوراق النخيل. ثم تتضاعف شدة الأمطار ويخفت النور من حولنا، وكأن الليل قد حل قبل موعده. مما يصيب جول بالاستياء، لكنني أقاطع ذلك قائلة: هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا؟

يُحَدِّقُ إلى الفراغ وكأنه يرنو إلى الأفق الذي انمحت خطوطه، ثم يدير وجهه نحوي وفي عينيه نظرة تأذن لي بالمتابعة: لماذا لم تمارس ركوب الأمواج اليوم؟

17

كنت أفكر في أبي ...

لقد استغرق جول بعض الوقت قبل أن يجيبني، ووقتًا أطول كي يتابع كلامه، وبينما أحترم إيقاعه في الحديث، أردف قائلًا: إنه مُتَوَفٍّ..

ينساب المطر حينها على أوراق النخيل التي تُمثل لنا سقفًا يحمينا من العاصفة ثم تتساقط قطراته على الرمل الذي يَتَشَرَّبُهُ سريعًا، وبينما يبدو على جول الإعياء، أفكر بخُبث في أنه عليَّ أن أستغل لحظة ضعفه العابرة تلك لأن صبري قد نفِد، وأنا أرغب في التغلغل في ماضيه ومعرفة أسباب وجوده معنا. فأفاجئه بقولي: ولهذا فأنت تحقد عليَّ؟

فينظر إليَّ دون أن يستوعب ما قلته له متسائلًا: ماذا؟ لا، ما الذي تتحدثين عنه؟

لا أدري، فأنت مختلف عن الآخرين وأنا لا أفهم سبب رغبتك في المجيء معنا إلى هنا.

أفكر بداخلي في أنني قد فتحتُ للتو صندوق باندورا[6] ولم يعد في إمكاني التراجع.

فألقي عليه سَيْلًا من الكلمات:

لقد كذبت عليَّ عندما تظاهرت بأنك لا تعرفني ولم يسبق أن التقيت معي، بينما أنك في الحقيقة كنت تعمل نادلًا في أثناء الأمسيات التي كنت أنظمها في منزل والدي، وأنا الآن متأكدة من أنك قمتَ باستغلال عملك لسرقة الأجوبة الخاصة بمسابقتي.

قلتها له وأنا أتجنب ذكر أنني أملك الدليل القاطع كي لا أورط إيناس.. فينظر جول إلى الأرض، شاعرًا بأن قناعه قد سقط.

ثم يقول بصوت حاد:

لقد كنت بحاجة للمجيء إلى أستراليا، وكانت مسابقتك بمنزلة هبة من السماء، لأنني لن أتمكن أبدًا من توفير المال اللازم لتمويل هذه الرحلة.

وبينما يخترق شعاع خافت من بعيد إحدى السحب الكثيفة التي تغطي المحيط، معلنًا عن اقتراب عودة الشمس إلى السطوع من جديد.

يضيف:

أجل، أعترف بأنني قمت بالغش. لأنه لم يكن باستطاعتي الإجابة عن أسئلتك وكان هذا هو الحل الوحيد بالنسبة إليَّ كي أتمكن من المجيء إلى هنا.. فعندما عرفتُ أنك تنظمين أمسية قبل بدء مسابقتك تطوعت للعمل كنادل مع «جو» منظم حفلاتك، وفي بداية الأمسية اقترحت عليه أن أتكلف ببوفيه المشروبات، وكما تعلمين فإن القارورات ثقيلة، ويضطر المرء إلى النزول إلى القبو كي يجلبها مما يستغرق وقتًا كبيرًا، ولهذا فقد اقترحت الأمر على النادلين الآخرين، وعندما وافقا انتظرت حلول اللحظة التي انشغلتِ فيها باللهو مع أصدقائك بالقرب من المسبح قبل تقديم الحلويات، حيث كان بقية ضيوفك متجمعين في الشرفة المطلة على المسبح.. وكنت أنا أعرف المنزل جيدًا بحُكم أنه سبق لي أن عملتُ في أمسياتك من قبل، كما أنني كنتُ أعلم أين توجد غرفتك بالضبط، لذا فقد تسللتُ لأفتشها، وكان العثور على الأجوبة الصحيحة المتعلقة بمسابقتك سهلًا للغاية، لأنك كنت تضعينها داخل حقيبة يدك.. فالتقطتُ صورًا لورقة الأجوبة ثم أعدتها إلى مكانها دون أن يراني أحد أو يكتشف أمري..

علقت على ما قاله:

وهذا يفسر السرعة المفرطة التي أجبت بها عن سؤالي الأخير.

ليهز رأسه بِنَعم وهو يشرح قائلًا:

لم أكن أعرف الوقت الذي تتطلبه الإجابة عن ذلك السؤال بالتحديد، حيث كان بإمكاني أن أنتظر لبضع ثوانٍ أو لعدة دقائق، لكنني لم أكن أرغب في تضييع فرصتي بعد كل ما قمتُ به، فقد كانت مجهوداتي ستذهب سدًى لو سبقني أحدهم بالإجابة.

ولماذا تحقد عليَّ لهذة الدرجة؟ أنا لم أقم بإيذائك قط!

ماذا تقولين؟ هل جُنِنْتِ؟

ماذا عن العنكبوت التي وُضِعَتْه في سريري، اختفاء جواز سفري وتخريب الجهاز الهوائي المسؤول عن الشبكة وكابل الإنترنت لعزلنا عن العالم؟

هذه.. هذه حوادث عرضية ولا علاقة لي بها بتاتًا.

لقد سبق وكذبتَ عليَّ، فكيف أصدقك الآن؟

كلارا، أنا هنا من أجل أبي.

أشعر في تلك اللحظة أنه ينطق هذه الجملة بنبرة صادقة أثرت بي، وهو يتابع: لا أملك سوى القليل من الذكريات المرتبطة بأبي، لقد كان رُبَّانًا يقود طائرات مثل تلك الطائرة التي جلبتنا إلى الجزيرة، كان يُكَلَّفُ بمهمات طويلة الأمد، ويغيب لفترات متفاوتة وهو يجول في كل بقاع العالم، تاركًا إياي وحيدًا مع أمي، وعندما يعود إلى المنزل في زيارات خاطفة كان يجلب لي العديد من الهدايا التي لم يتسنَّ لي فتحها في مرة إلا واختفى أبي من جديد.. وقد كنت أبلغ من العمر أربع سنوات عندما هاتفوا أمي من أستراليا ليخبروها بأن الطائرة التي كان يقودها أبي لم تصل قط إلى وجهتها في تلك الرحلة المشؤومة، التي قرر فيها أن ينوب عن ربان آخر كان يعمل معه لحساب شركة طيران تربط بين جزر المحيط الهادي.

وهل جاء والدك إلى جزيرة السيدة إليوت؟

لا أعلم علم اليقين، لكنني كنت أحتاج إلى المجيء إلى هنا، إلى الموقع الذي اختفى فيه أبي بأستراليا، في عرض المحيط الهادي، فقد كنت أود الإحساس بحضوره، وكأن هذه الرحلة ستساعدني لأكون قريبًا منه وأتواصل مع روحه.

يلتقط أنفاسه ويكمل بتأثر:

هل تفهمين يا كلارا؟ فأنا لا أتذكر سوى ابتسامته، لحيته غير المرتبة وعينيه الزرقاوين اللتين تنضحان بالذكاء.. وهنالك شيء واحد مؤكد وهو أنني لم أَسْعَ يومًا إلى إيذائك. إن مسابقتك منحتني الفرصة لأكون هنا فحسب، وحتى لو كنتُ غششتُ كي أكسب فأنا ممتن لك على تحقيق حلمي.

لا أعرف بِما أجيبه، إذ أشعر بالتشتت ومع ذلك ففي قرارة نفسي كنت أشعر بالسعادة أيضًا، لأن جول ساعدني مرات عديدة، ولا أستطيع أن أصدق بأنه من الممكن أن يكون مدفوعًا بنيات شريرة.

يقول لي:

إذا كنتِ ترغبين في رحيلي فأنا مستعد للعودة إلى فرنسا على متن أول طائرة ستهبط على هذه الجزيرة، وأعدكِ بأنك لن تسمعي أي شيء عني مجددًا، أبدًا!

ترتسم ابتسامة على شفتيَّ وأنا أهز رأسي رفضًا: لا، هذا غير وارد.. بل مستحيل!

بعدما تناولنا وجبة العشاء مساءً جلسنا نلعب تنس الطاولة ونتسلى بمُكَعَّبِ روبيك، بينما يحاول كل شخص منا أن يعيد تشكيل الأوجه الستة للمكعب تحت تشجيع المشاركين الآخرين، كما نستعين بالكرونومتر[7] كَحَكَمٍ على أدائنا.. وقد كانت ماري هي الأكثر موهبة في هذه اللعبة، فما إن تداعبَ يداها المكعب حتى يعود إلى شكله الأصلي في ثوانٍ معدودة.

أما أنا فكنت أسوأ لاعبة ضمن المجموعة، فمهما حاولتُ أن أركز لا أستطيع تشكيل وجه واحد للمكعب.. فيزعجني ألا أمتلك نفس المهارات التي يمتلكها الآخرون وكأنَّ هنالك جدارًا كي أخترقه. لكنني لاعبة ممتازة لتنس الطاولة.

يُصِرُّ جول على مواجهتي ظنًّا منه أنه لن يستغرق سوى بضع دقائق لهزيمتي، لكنه سرعان ما يصاب بخيبة الأمل، فعلى رغم مشكلات رؤيتي فإنني أجعله يخطئ في صَدِّ ضرباتي المُسَدَّدَةِ بِدِقَّةٍ. وفي إطار احترام البيئة وبهَدف ترشيد الطاقة، يغلق المطعم وكذلك صالة الألعاب الخاصيْن بالفندق في وقت مبكر نسبيًّا، ولهذا نقصد الشاطئ كي نكمل سهرتنا، حيث نلاحظ أن آثار العاصفة قد تلاشتْ، كما توقف المطر وتبددت السحب واختفت الرياح بمجرد حلول مغيب الشمس.. إنها ليلة بلا قمر، ليلة هادئة بحيثُ يتناهى إلينا هدير الأمواج الصغيرة التي ترتفع تدريجيًّا لتصل إلى الشاطئ، بينما يتقدم مد البحر صوبنا رُويدًا رويدًا في ذروته..

يسخر أفراد المجموعة من أنطوان كونه لا يشارك في أيٍّ من أنشطتنا، فَيَرُدُّ قائلًا: أنا لا أشارككم نفس الهوايات، وأنا آسف لأنني لن أتغير لأنال إعجابكم.

وحينها تسأله إلزا:

ولكن ما هي أنشطتك المفضلة؟

أنا أمارس رياضة الكاليستانيك.

نتبادل النظرات، لأننا نجهل ماهية تلك الرياضة، فينظر إلينا أنطوان في تَعَالٍ كأستاذ في مواجهة تلاميذٍ جهلة ويشرح: رياضة الكاليسثانيك هي تدريب من تدريبات كمال الأجسام، والتي تهدف إلى تحسين الأداء البدني وصقل جماليات الجسم.

فيقول جول:

إنها رياضةُ «تدريب الشارع»، وهي رياضة رائجة في أستراليا.

ليجيبه أنطوان:

بالضبط، كما أنه من الممكن أن تمارس الكاليسثانيك في منزلك دون حاجة إلى الذهاب إلى الشاطئ كي تستعرض مهاراتك أمام أنظار الآخرين، إنه نشاط بدني يهدف إلى جعلك تتحد مع نفسك.

تتدخل ماري متسائلة:

لكنني لا أفهم هل تقصد أن تقول إنك غير راضٍ عن جسدك؟ لن أطلب من صديقاتي رأيهن وسأسمح لنفسي بأن أقول لك بأن جسدك.. مثالي.

تحمر وجنتا أنطوان وهو يقول:

لا، إن ما ترينه مثاليًّا أراه أنا مزيفًا. فأنا أنوي إحداث تغييرات كثيرة على شكلي.

تتجهم وجوهنا لأننا نجهل قصده، بينما يمازحه جول قائلًا: هل ستخضع لعملية شفط الدهون؟!

ثم ننفجر في الضحك، ويبتسم أنطوان مشيرًا إلى عضلته العضدية البارزة: كلا، ولكن ما ترونه هنا نتيجة للمواظبة على تناول مواد معينة منذ عامين مثل التورين، الجلوتامين، والكرياتين، حيث دخلت في نظام غدائي صارم لدرجة أنني لم أعد أتذكر آخر وجبة دسمة قد تناولتها، ولا آخر كعكة شوكولاتة. وعلى رغم أن اختياري لهذا النظام كان نوعًا من الحمق فإنني أصبحتُ مدمنًا على هذه المواد التي يجب خلطها مع الماء من أجل تجرعها، كما أن النتائج كانت سريعة للغاية، حيث تبرز العضلات في غضون أشهر حتى تتكون لديك كتلة عضلية مهمة فتبدو وكأنك عملاق مما يجعل الفتيات يعجبن بك، حيث..

ينظر إلى الفراغ في تردد بينما يتابع كلامه: نتناول هذه المواد أكثر فأكثر، بعدما تبتاع منها كميات كبيرة جدًّا، ثم في يوم من الأيام وأنت في الصالة الرياضية تسقط منك منشفتك على الأرض لِتَعِي أن عضلاتك الرائعة والمشدودة جدًّا تمنعك من الانحناء لالتقاطها، كما تلاحظ شخصًا نحيلًا بوسعه قفز الحبل أسرع منك، وفي هذه اللحظة تستوعب أنك كنت مخطئًا.

تتوالى الأمواج وكأنها تستجيب لصرخات استغاثة الطيور التائهة في الظلام.

بينما أفكر أن أنطوان لم يبد كشخص قادر على ممارسة التأمل الذاتي واستبطان ملاحظات داخلية مماثلة كهذه.

حيث يردف قائلًا:

لقد قررتُ الإقلاع عن كل هذه العادات المضرة بالصحة، وهذه الرحلة هي فرصة ذهبية لذلك، لأنه من المستحيل أن أجلب معي هذه السموم على متن الطائرة.

فيسأله جول:

وكيف تساعدك رياضة الكاليسثانيك؟

إنها ممارسة تحوي العديد من الحركات الصعبة التي تجعلنا نتألم لذا فإنها تتطلب قوة تحمل كبيرة، والكتلة العضلية التي تكتسبها منها مهما كانت ضئيلة يستحيل أن تضعف أو تتقلص.. إنني أود أن أكون متصالحًا مع جسدي، أن أتمكن من الركض والتسلق لا أن أصير مجرد كتلة ضخمة من العضلات غير المُجدية.

وهنا تطلب منه إلزا:

هل يمكنك أن تُرينا أحد تمارينك؟

فيبتسم أنطوان وهو سعيد لأننا أولينا هذا الاهتمام بشغفه الرياضي ثم يتشبث بعمود يدعم السقف المعدني الذي تصطف تحته الزوارق، وبعدها يتدحرج للأمام بمستوى مائل.. فتهتز عضلاته وكأنها على وشك الانفجار ويَحْمَرُّ وجهه قبل أن يتوقف وينهار متعبًا على الرمل.

فأقول في دهشة:

يستحيل أن أقوم بهذه الحركة!

لكن جول يحاول تقليده دون أن ينجح في ذلك، فيقول له أنطوان: يلزمك تعلم التقنيات الخاصة بهذه الرياضة كي تنجح في أداء كل الحركات بسهولة.. وإذا كنتَ راغبًا في ذلك فأنا سأعلمك.

ثم يتبادلان التحية على طريقة رُعاة البقر في الأفلام الأمريكية. بينما تحاول بقية المجموعة النجاح في أداء هذه الحركة اللعينة لكننا لا ننجح في ذلك، قبل أن نقرر العودة إلى بيوتنا ونحن نتأمل المَدَّ البحري وهو يَتصَّاعَدُ أكثر فأكثر ليُعانق الرمال الصافية.

في وقت ماضٍ، وفي مكان آخر، كنتُ سأقبل دعوة إلزا لنشاهد معًا حلقات من برنامج تِلفزة الواقع «المارسيليون»، والتي قامت بتحميلها على حاسوبها قبل مجيئنا إلى هنا لأننا نحب مشاهدة عدة حلقات متتابعة منه في جلسة واحدة، لنضحك على المشاركين فيه، ونقلد مظهرهم وتصرفاتهم. الأمر الذي يصيب والدتي بالهلع حين تراني مفتونة بهذا النوع من البرامج، لأنها لا تفهم بتاتًا أهمية «إهدار الإنسان وقته في العدم» كما تقول، إضافة إلى أنها تنعت هذا النوع من البرامج بـ»استباحة الحمق»، لكن ما تقوله أمي لا يهمني، فأنا أشاهد هذا البرنامج عندما تتملكني الرغبة في الاستلقاء على الأريكة لِأَغُطَّ في نوم عميق.

لكنني أرفض هذا العرض الذي تُبدي إيناس موافقتها عليه وتذهب رفقة إلزا لمتابعة حلقات من البرنامج، فأتركهما معًا وأمضي وحدي. أما جول فإنه يجمع أغراضه دون استعجال، كما لو كان بيننا اتفاق ضمني لنُمضي بعض الوقت معًا مجددًا.

إذ نبتعد قليلًا على الشاطئ المهجور حيث تتواجد أريكتان متجاورتان، فنتمدد فوقهما أنا وجول. كما أنه هنالك أغطية وُضعت فوق الأريكتين والتي نستعملها لِنَقِيَ أنفسنا من الهواء البارد.

ثم يقول لي جول وهو يشير إلى السماء:

انظري، يا للروعة!

وعلى هذه الجزيرة التائهة وسط المحيط الهادي، حيث لا وجود للتلوث الضوئي مما يسمح لنا بتأمل مجرة درب التبانة ونجومها التي لا تُعد ولا تُحصى.

يضيف قائلًا:

إننا ننظر إلى انعكاس الماضي العجيب!

عذرًا؟

لقد عَبَرَتْ هذه النجوم المضيئة الفضاء لسنين طويلة قبل أن تصل إلى كوكب الأرض، فقد سبق لي أن تابعتُ تقريرًا تلفزيونيًّا حول رصد النجوم، وعرفت أن تلك النجوم التي تلمع الآن هي في الحقيقة ميتة ولم يعد لها وجود على الأرجح، ولهذا فإن الأمر يشبه تأملنا لصورة قديمة.

هذا أمر باهر وغريب في نفس الوقت.

إن مشكلات رؤيتي لا تمنعني من الاستمتاع بهذا المشهد ولهذا فأنا لست واثقة من أنني أرى نفس ما يراه جول، ولكن هذه اللوحة السماوية تخطف الأنفاس.

وفي هذه الأثناء يخترق نجم هارب السماء ليحتضر في الأفق، فأقول: علينا أن نتمنى أمنية.

وبعدما نتبادل نظرة مؤيدة للفكرة. أتمنى في داخلي أن تمر متاعبي الصحية سريعًا ولا أملك فكرة عما سيتمناه جول. ثم نترك الصمت يحاوطنا لنغتنم فرصة وجودنا في هذا المكان الساحر.

وبينما يتصاعد المد البحري حتى يبلغ ذروته. يقترب منا ظل لشخص قادم من ضفة الشاطئ نعجز عن تبين ملامحه بسبب بُعد المسافة الفاصلة بيننا، حتى يهمس لنا قائلًا: تعالا لتنضما إلى ويندل، تعالا لتنضما إلى ويندل!

فننهض مسرعين تاركين أغطيتنا وراءنا كي نلحق بويندل الذي يقول وهو يشير إلى المحيط: إنها قادمة.

وعندما ننظر في الاتجاه الذي أشار إليه ويندل، نلمح ثلاث صخور مستديرة وناعمة، أو بالأحرى قوقعات سلاحف داكنة ضخمة. وفي هذه اللحظة، يبدو أن الزمن قد توقف بعدما فقدنا السيطرة عليه وكما تتوقف الأرض عن دورانها أيضًا، بحيث إن كل حركة تبدو وكأنها تحدث بالتصوير البطيء.

وسرعان ما ندنو من السلاحف حتى نلاحظ بذهول رؤوسها الكبيرة وأطرافها المنبسطة، فقد وصلت هذه السلاحف إلى ضفة الشاطئ بعد رحلة طويلة وشاقة.

يشرح لنا ويندل الأمر قائلًا:

إنها تستعد لوضع بيضها.

فنترك مسافة كافية بيننا وبين السلاحف كي لا نزعجها، حيث تتقدم ببطء على الرمل بينما تخلف آثار مرورها عليها كَنَقْشٍ يزين الشاطئ. فنواصل مراقبتها حتى تصل إلى الشجيرات التي تنمو على الشاطئ ثم تشرع في العمل بعدها، إذ تقوم بحفر الأماكن الآمنة التي ستضع فيها بيضها، مما يتطلب منها جهودًا كبيرة ومُضْنِيَة إلى درجة أننا نسمع أحيانًا أنفاسها العالية التي تشبه حشرجة شخص يُحتضر.

لكم أشعر بالحزن على هذه الكائنات التي تجبرها الطبيعة على بذل تضحيات جسيمة. إذ تستمر السلاحف في مهمتها الصعبة بحركات دقيقة ومتناسقة من أجل الحفاظ على بقاء نوعها.

بينما نراقب الأمر والنجوم الهاربة لا تزال تنير سماءنا حتى يُخرج ويندل من جيبه مصباحًا يدويًّا صغيرًا، ويقترب من إحدى السلاحف ليسلط عليها الضوء، وهو يقول: لقد انتهت تلك السلحفاة من الحفر وستضع بيضها الآن.

ثم يسمح لنا بالاقتراب حتى نجثو على رُكَبِنا على بُعْدٍ كافٍ من السلحفاة، لنشهد عملية وضع البيض..

نتبادل أنا وجول الابتسامات، وكأننا صرنا أقرب إلى بعضنا بعدما شاهدنا هذا المنظر العجيب.

وبعد عدة دقائق، تغطي السلحفاة الحفرة التي وضعت فيها صغارها القادمين بالرمل.. وتحين ساعة العودة إلى أعماق المحيط لأن المد فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها بالنسبة إليها، حيث إن السلاحف الثلاث يعودون على رغم أن الوقت لم يسمح لاثنين منها بوضع بيضها، فيقول لنا ويندل: ستعود غدًا.

وعندما يسأله جول:

هل ستقوم بنفس الرحلة المتعبة؟

يهز ويندل رأسه ويتابع متحدثًا عن نفسه بصيغة الغائب نفسها: سيكون ويندل هنا في شهر أبريل من أجل حضور اللحظة التي يفقس فيها بيض السلاحف، حيث ينبغي للسلاحف الصغيرة حينها أن تصل إلى المحيط، وأن تتجنب التعرض للالتهام من طرف طيور النورس، كما ستواجه في رحلتها داخل البحر مخاطر متعددة أيضًا، ولن ينجو منها سوى عدد قليل في النهاية.

أتساءل قائلة:

هل ستحاول أن تطارد الطيور التي تُشَكِّلُ خطرًا على السلاحف الصغيرة؟

لا، إن هذا طقس ثابت خاص بالطبيعة وليس لي الحق في التدخل.

أوافقه الرأي بعد أن بدأت أستوعب فلسفته شيئًا فشيئًا.

بينما تزحف السلاحف الثلاث على الرمال إلى أن تبلغ المياه القاتمة للبحيرة حيث تغوص لتختفي رويدًا رويدًا. وفجأة، نسمع صوت تحطم خشب ما، تصحبه رائحة احتراق ودخان كثيف، فنستدير لأصرخ تعبيرًا عما رأيت: آه، لا، هذا فظيع!

إذ كانت النار تلتهم بيتي الخشبي أمام أعيننا المذهولة!

يحاول موظفو الفندق إطفاء الحريق بمساعدة خرطوم مياه خاص بريّ النباتات، ولكن ألسنة اللهب تصل إلى عنان السماء، لقد أحرقتْ أغراضي ودَمَّرَتْ هيكل البيت الخشبي لدرجة أن الدعائم تكسرت من شدة الحرارة، كما تحطم السلم العائم بالكامل فما نجا من الحريق لم يَنْجُ من الغرق في المياه.

أبكي في انهيار على فقداني لكل شيء، حقائبي وثيابي التي تحولت إلى رماد بالكامل مثلما حدث مع حاسوبي، هاتفي المحمول وآلة تصويري.. بينما أتذكر الصور التي التقطناها على الشاطئ والتي تطلبت مني ساعات طويلة من الإعداد لها، لقد انمحى كل شيء وسقط في هاوية العدم حتى لم يتبق لي سوى لباس السباحة، القميص الذي أرتديه والصندل الصيفي الخفيف الذي أنتعله.

إن الحظ السيئ يلاحقني في كل مكان.. مما يجعلني أتساءل من المسؤول عن هذا الحادث الجديد؟ من بوسعه أن يحقد عليَّ لهذه الدرجة؟ فإن أنطوان وماري غادرا الشاطئ معًا، مثلما ذهبت إيناس وإلزا لمشاهدة برنامج تلفزة الواقع، وجول لم يتركني للحظة، لكنني لا أعلم ماذا كان يفعل ليف هذا المساء، ولكن ما الأسباب التي قد تدفع مواطنًا أستراليًّا لفعل هذا؟ ربما يكون على خلاف مع أبي؟ ولهذا تتخبط الاحتمالات والفرضيات داخل رأسي المُتْعَب حتى أشعر بأن دماغي سينفجر.

تقول لي إلزا:

تعالي يا كلارا، سأستضيفك في بيتي.

ولأنه ليس هناك بيت شاغر واحد في الفندق بأكمله.. كما إنها الأكثر إلحاحًا من بين صديقاتي لأنها تغار من مدى تقاربي أنا وإيناس، أوافق على عرضها إرضاءً لها. فتأمر إدارة الفندق بتجهيز سرير إضافي من أجلي في بيت إلزا. وهو سرير مريح وفروه لي بالمجان، كما يجلب لي طاقم الفندق قمصانًا تباع في الجزيرة، ومستلزمات النظافة الأساسية والمناشف، أما ماري، إيناس وإلزا فإنهن يسمحون لي باستعارة ما تبقى من الملابس في انتظار أن أبتاع ثيابًا جديدة.

وبعد هذه الليلة السحرية التي قَضَيْتُهَا بالقرب من السلاحف الضخمة الجميلة، الليلة التي أفسدتها النيران بعدما دَمَّرَ لهيبها الهائل كل شيء في دقائق معدودة، أعترف بأنني أعاني صعوبة في النوم، وكذلك إلزا التي تسألني بعصبية شديدة: هل تعتقدين أن جول هو من افتعل الحريق؟

لا، لقد كان معي هو ووينديل.

فتجيبني قائلة:

أنت وجول تمضيان الكثير من الوقت معًا مؤخرًا.

فأتظاهر بأنني لا أفهم ولا أكثرت لما ترمي إليه ثم أقول: لقد أخبرني جول عن سبب وجوده معنا على الجزيرة، فعندما كان طفلًا صغيرًا تُوفي والده في حادث طائرة بنفس المنطقة، كما أنه اعترف بإقدامه على سرقة الأجوبة الخاصة بمسابقتي من حقيبة يدي للتمكن من الفوز والمجيء إلى مكان اختفاء والده.

وهل تصدقينه حقًّا؟

أجل، إنه لم يُخْفِ عليَّ أي شيء.

هل تشعرين أنه يملك تأثيرًا خاصًّا عليك؟

لا، لا، إنه..

أبحث عن كلمات مناسبة قبل أن أتابع:

إنه فتى مُحَيِّر، بوسعه أن يقوم بحمايتي والاهتمام بي، لكنه يقبع في عالمه الذي يصعب اقتحامه أحيانًا.

أنت، أنت تحبينه!

لا!

أحاول أن أدافع عن نفسي وأنا عاجزة عن تحديد المشاعر التي أُكِنُّهَا لجُول.

فأنا لا أنكر كونه يتمتع بِسِحر خاص، خاصة عندما يرنو إليَّ بعينيه الداكنتين، كما تعجبني أيضًا خصلات شعره المتناثرة وطريقته في الاستمتاع بالحياة والتي تثير اهتمامي ودهشتي، ولكن أن تظن إلزا أنني أحبه، فهذا مبالغ

فيه! إذ لم يسبق قط أن وقعتُ في الحب ولا أعلم لماذا، فبالنسبة إليَّ الشبان ليسوا سوى وسيلة لتحدي غريماتي من الفتيات، ولذلك فأنا دائمًا ما أحتاج إلى رفاق وسيمين ومرغوبين للغاية، كما أهدف أيضًا إلى التقاط صور معهم أكثر مما أهدف إلى الدخول في قصة حب، صور أتفاخر بها أمام الفتيات الأخريات، بالإضافة إلى أنني أخشى فكرة الوقوع في الحب ومنح قلبي لمن لا يستحق، وأتساءل أنني ربما أكون عاجزة عن هذا الشعور.

تقول إلزا بعد ذلك:

فَلْنَعُدْ إذًا إلى موضوعنا الأهم، عليَّ أن أخبرك بأنك لست الوحيدة التي تتعرض للمضايقات.

فأعتدل في جلستي وأسألها وأنا متفاجئة: ما الذي تودين قوله؟

لقد حَدَثَتْ أشياء غريبة في بيتي كذلك.

أنا لا أصدق! إن شكوكنا أصبحت مبنية على أسس قوية الآن، ثم تتابع إلزا: لقد كنت أمتلك قارورة على شكل خنزير وردي وبها بعض الحبوب المخدرة كما تعلمين، والتي أخفيتها تحت ثيابي في خزانة ملابسي لأكتشف اليوم أنها اختفت.

هل أنت متأكدة من أنك لم تخبئيها في مكان آخر؟

هذا ما فكرت فيه، لكنني فتشتُ غرفتي بأكملها دون جدوى.

هذا لا يُصدق! إن كل هذه الحوادث غير مترابطة ولا معنى لها.

أنا لا أعرف المتسبب في كل هذا، ولكن علينا أن نجعله يتوقف عن أفعاله قبل أن يُقْدِمَ على فِعْلٍ أكثر خطورة.

يعم الصمت بعد هذا الحديث الكاشف لتلك الأحداث الغريبة وأغلق عينيَّ وأنا أتمنى أن يزورني النوم.. فتتداخل في ذهني صور السماء الممتلئة بالنجوم، السلاحف الكبيرة، وبيتي الخشبي المشتعل.. إذ يبدو أن الكوابيس ستتربص بي في هذه الليلة التي يستحيل أن أحظى فيها بالراحة!

لم يتبقَّ شيء من بيتي الخشبي المطل على البحيرة في الصباح، عدا الخشب المحترق الذي يطفو على سطح الماء وسط الأعمدة المنكسرة والمتشابكة معًا. وبينما لا نزال جميعًا تحت وقع صدمة الحريق، ننظر إلى فطورنا دونما رغبة في التحدث.. حيث يتمكن مننا الشك شيئًا فشيئًا، ويبدأ كل فرد منا في الاحتياط من الآخرين، لأنه ثمة شخص مخادع بيننا بالتأكيد.

يُذكرني هذا الوضع بلعبة «القنبلة الموقوتة»، والتي تكون عبارة عن لعبة جماعية حيث ينبغي أن نُبْطِلَ مفعول قنبلة قبل أن تنفجر، كما يجب كشف هوية أخطر لاَعِبَيْنِ من طرف فريق التقنيين المختصين في إبطال مفعول القنابل لمنع هذين اللاعبين من تحقيق أهدافهما وتفجير القنبلة. أشعر أننا الآن في وضع مماثل وعلى هذه الجزيرة التي تقع وسط المحيط الهادي الجميل، فإن كل فرد من مجموعتنا يلعب دوره، حيث يدافع عن نفسه ويرغب في إقناع الآخرين ببراءته.

ففي لعبة القنبلة الموقوتة، عندما يتحتم عليك لعب دور «المجرم»، هناك العديد من الأساليب المتاحة لك لتجنب الاشتباه بك والكشف عن هويتك، مثل محاولة إظهار صدقك، اللعب على المشاعر التي يُكِنُّهَا الآخرون لك، أو جعل الشكوك تدور حول شخص آخر لِصَرْفِ الانتباه عنك، وكوني خبيرة في هذه التقنيات، فإنني أشرع في مراقبة تصرفات رفاقي في هذه الرحلة.

ثم تبادر ماري بالحديث:

يا لها من حكاية جنونية! ها نحن في جزيرة رائعة تشبه الجنة، ولكنني أشعر بأنها تحولت إلى جحيم! هل لنا أن نستمر في التحدث مع بعضنا على الأقل أم أنكم لا تودون ذلك؟

لا يجرؤ أحد على النظر في أعين الآخرين، وإنما نُوَجِّهُ جميعًا أنظارنا نحو المحيط.

بينما أرد على ماري قائلة:

إن الحذر قد أصبح يَسُودُ علاقاتنا والشكوك تتزايد، مما يؤثر سلبًا على مزاجنا.

وهنا تقترح إيناس:

لِمَ لا نبدأ لعبة كشف الأوراق؟ فلنعتمد أسلوب التحقيق البوليسي ونحلل الوقائع.

فيجيبها أنطوان:

أنت تشاهدين الكثير من المسلسلات البوليسية على ما يبدو.

لكنها تقول له:

أبدًا، ولكن إذا قام ضابط شرطة بالتحقيق في هذا الحريق، فإنه سيبدأ بالتحقق من حُجَّةِ غِيَابِ كل شخص من بيننا في اللحظة التي شَبَّ فيها الحريق.

وحينها يعلو صوتي قائلة:

إنها فكرة جيدة! وبالنسبة إليَّ فقد كنتُ وقتها على الشاطئ مع جول وويندل لِنَشْهَدَ وضع السلاحف البحرية لِبَيْضِهَا.

ثم أشير إلى إلزا لتتحدث:

أما أنا فقد كنت مع إيناس في بيتي، نشاهد حلقات من برنامج تلفزة الواقع «المارسيليون».

وبينما أنتظر جوابًا من ماري تتدخل إيناس موجهة كلامها إلى إلزا: حسنًا، لقد نسيتِ أنكِ قد غادرتِ البيت لمدة خمس دقائق في الحقيقة بين حلقتين من البرنامج.

فيحمر وجه إلزا من الغضب:

حقًّا! وهل تعتقدين أن هذا وقت كافٍ لإضرام النار في بيت كلارا؟...

يقاطعها جول:

لستِ بحاجة سوى إلى بضع ثوانٍ لإشعال عود ثقاب.

لكنها تجيبه:

يا له من خيال مريض! ما تقولانه أنت وإيناس لا يعني شيئًا لأنه ليس لديَّ أي سبب كي أحقد على كلارا التي قامت بدعوتي إلى هذه الرحلة.

فيقول أنطوان:

ربما أنك في داخلك لا تعترفين بِفَضْلِهَا عليك، أو ترغبين في التفوق عليها كونك أيضًا مؤثرة على الإنستغرام...

فتقاطعه:

كيف تجرؤ على اتهامي!؟ هل تعلم أنني رأيتك ليلة أمس قبل الحريق تتجول بالقرب من بيت كلارا على الجسر العائم وأنت تحمل بين يديك شيئًا لم أميزه!

وهنا نستدير صوب أنطوان الذي يظهر عليه الارتباك، وهو ينظر إلى ماري وكأنه يطلب منها أن تدافع عنه.

لكن ماري تحثه على الحديث قائلة:

هيا أخبرهم!

بعد نزهتنا أنا وماري أمس، طلبتْ مني أن أُعَلِّمَهَا كيفية القيام بحركات رياضة الكاليسثانيك، ولهذا ذهبتُ إلى بيتي لأجلب لها كتابًا للمبتدئين في هذه الرياضة.

فتستأنف إلزا الدفاع عن نفسها، وتضيف قائلة:

بإمكان كلارا أن تخبركم بأنني ضحية مثلها، لقد قام أحدهم بسرقة قارورتي الصغيرة على شكل خنزير وردي والتي كنت أضع بداخلها القليل من الحبوب المخدرة..

يقول جول:

أقترح أن نقوم بتفتيش بيوت كل أفراد المجموعة، وليست هناك أية مشكلة إذا كنتم ترغبون في تفتيش بيتي أولًا.

يجيبه الآخرون:

وأنا أيضًا.

لِيس لديَّ أي مانع.

أنا موافقة.

بينما أقول أنا:

ربما يجب أن نفعل ذلك، علينا أن نبدأ حملة لتفتيش البيوت كما يفعل المحققون بحثًا عن أدلة ملموسة مخبأة بين الأغراض الشخصية لنا جميعًا، وإذا لم نعثر على أي دليل فعلى الأقل سيجعلنا الأمر نستعيد الثقة فيما بيننا.

يخلع جول قميصه ويحمل زعانف السباحة، قناع الغوص والمنشاق قائلًا: لا ترددوا في بعثرة كل أغراضي، وفي خلال الوقت الذي ستقومون فيه بتفتيش بيتي، سأغوص تحت حطام بيتك الخشبي يا كلارا لأحاول العثور على بعض مجوهراتك أو أي شيء يخصك أستطيع إنقاذه.

تحمر وجنتاي من الخجل، فقد فكر جول في أمر لم يتبادر إلى ذهني مطلقًا، يا له من فتى لطيف!

ثم نبدأ بعدها في تفتيش البيوت الخشبية كما لو كنا ضباط شرطة يعملون في قسم مكافحة الجريمة، حيث تتكلف إلزا بتفتيش بيت أنطوان، في حين تبحث ماري عن دليل بين الأغراض الشخصية لإيناس التي تعترض قائلة: هل بإمكانكِ أن تكوني حريصة أكثر لأنني رَتَّبْتُ كل أغراضي بعناية!

بينما يقوم أنطوان بالبحث في بيت إلزا ثم يتوجه صوب بيت جول، ولكنه لا ينجح في العثور على أي دليل يُدِينُ أيًّا منهما. حتى تنتهي إلزا من تفتيش بيت ماري أخيرًا ولكن بلا جدوى، وبما أنه البيت الأقرب إلى بيتي المحترق، فإننا نمر من الجسر العائم لنعرف إذا ما كان جول قد نجح في العثور على بعض أغراضي بعد تنقيبه في البحيرة.. فأنا أتمنى من كل قلبي أن يستطيع استعادة شيء منها.

ثم ألمح على أحد الألواح الخشبية للجسر عقدًا ذهبيًّا كان أبي قد ابتاعه لي في عيد ميلادي الثالث عشر، بالإضافة إلى خاتم أهداه لي بائع مجوهرات باريسي شهير لأقوم بالترويج له على حسابي بالإنستغرام، فألتقط العقد والخاتم اللذين أنقذهما جول بينما يواصل غوصه وبحثه وهو يتحكم في تنفسه، مما يجعله قادرًا على البقاء لعدة دقائق تحت الماء دون التقاط أنفاسه.

ثم يصعد إلى سطح الماء باديًا عليه الاضطراب وهو يقول: انظروا ماذا وجدت!

نقترب جميعًا لنتمكن من الرؤية بطريقة أفضل، ونتفاجأ عندما نلمح جول رافعًا يده لِيُظْهِرَ لنا شيئًا نتعرف عليه على الفور..

إنها قارورَة إلزا المفقودة!

نكتشف أن الحرارة الناجمة عن الحريق قد تسببت في إحداث شرخ بِغِطاء قارورة إلزا، وإذابة جزء منه مما جعل الماء يتسرب إلى داخلها ومن ثمَّ لم يعد ما بها صالحًا للاستخدام.

فتقول لي إلزا باستهزاء: هل كنتِ تحتاجين إليها لهذه الدرجة؟

لكنني أجيبها:

ماذا؟ هل تعتقدين جِدِّيًّا أنني سرقتها منك؟

وهنا تعلق ماري على ما أقول: ربما أنك تختبريننا بكل هذه الحوادث يا كلارا، قد تكون هذه إحدى ألعابك التفاعلية الجديدة على إنستغرام.. يبدو أنك تودين اختبار ردود أفعالنا!

ثم تضيف إلزا:

أجل، ربما أننا جزء في برنامج من برامج تلفزة الواقع.

لكني أرد عليهم في حدة: لقد أصابكم الجنون جميعًا! ليست لديَّ أية فكرة عن كيفية وصول هذه القارورة اللعينة إلى بيتي الخشبي!

وهنا يتدخل جول:

أنا عاجز عن فهم منطق ذلك الشخص الذي يستمتع بإثارة الرعب بداخلنا.. فإذا كنت أنا هذا الشخص الذي سرق قارورة إلزا ليضعها بين أغراض كلارا بهدف العثور عليها هناك والتسبب في إفساد علاقتكما فلماذا سأشعل النار في بيتها إذًا؟

يعلق أنطوان موافقًا:

سؤال وجيه!

ليتابع جول:

لقد كانت فرصة عثوري على هذه القارورة بين الحطام شبه منعدمة في أثناء الغوص.

أهز رأسي موافقة بينما تقول ماري: أنا أتفق معك يا جول، فما يحدث غير مفهوم!

فأقول لهم:

فلتصغوا إليَّ جميعًا، لنضع حدًّا لهذه المهزلة! انظروا أين وصلنا بسبب كل هذا، لقد فتشنا أغراض بعضنا، وكشفنا عن بعض التصرفات المريبة لأصدقائنا، والآن نحن نتبادل التُّهم.. ربما هذا هو هدف الشخص الذي يحقد علينا.

ثم تتدخل إلزا بهدوء:

ماذا تقترحين إذًا؟

لأجيبها:

ليس هناك سوى حل وحيد لِنُنْهِي هذا الجدال ونتوقف عن الشك في بعضنا وهو ألا يظل أي شخص منا لوحده، وهكذا سيكون باستطاعتنا أن نضمن شاهدًا على أفعال كل فرد منا، وإذا استمرت هذه الحوادث الخبيثة وقتها سنتأكد من أن مرتكب هذه الأفعال هو شخص غريب من خارج مجموعتنا...

فيقاطعني جول:

أو قد يتوقف كل هذا العبث لننعم بالسلام على هذه الجزيرة، ولكن في هذه الحالة سنتيقن من أن أحد أفراد مجموعتنا هو المسؤول عن كل الحوادث.

أوافقه الرأي مجددًا، ثم أراقب رفاقي وهم يفكرون في اقتراحي هذا.. لكنهم لا يملكون خيارًا آخر سوى الموافقة في واقع الأمر، لأن من سيرفض هذا الاقتراح سيجعلنا نظن تلقائيًّا أنه الجاني.

ثم يقول أنطوان:

اتفقنا!

وتوافق بقية المجموعة على القرار بدورها.

أبتسم لرفاقي قبل أن يَتَعَلّلَ كل من أنطوان وماري بأن عليهما الذهاب لترتيب أغراضهما المبعثرة إثر التفتيش، ثم ينسحبان من اجتماعنا. بينما ألاحظ أن إلزا لا تزال غاضبة مني، وكأنها لم تعد تستطيع تحديد مشاعرها نحوي.. فتعرض على إيناس أن ترافقها للتجول في محيط المنارة. وعلى رغم أنني أعتقد أن إيناس كانت سَتُحَبِّذُ البقاء معي فإنها ربما لا ترغب في إزعاجنا أنا وجول.

أجد نفسي وجهًا لوجه مع جول حيث نقف على الجسر العائم ونحن شبه عاجزيْن عن العثور على كلمات نتبادلها. وبعد مرور لحظات من الصمت يقول: حسنًا، أظن أننا مجبران على البقاء معًا تنفيذًا لقرارك.

فأسأله:

هل تشك بي مثلهم؟

لكنه يبتسم، فأشعر أنني ربما تحدثت بانفعال واضح فأقول: أنا آسفة يا جول، لقد كانت الأيام الأخيرة عصيبة كما تعلم.

فيمد لي يده قائلًا:

هيا تعاليْ!

أتردد هنيهة قبل أن أمسك يده وأتركه يقودني إلى الشاطئ في محاولة منه لجعل أعصابي تهدأ.

فهأنا أشعر بالأمان والاسترخاء أخيرًا، بينما آمُلُ ألا أكون مخطئة في منح ثقتي لجُول.

يصطحبني جول إلى الرصيف البحري حيث توجد قوارب «الكاياك» الصغيرة المتاحة لزبائن الفندق إذا رغبوا في تأجيرها؛ نظرًا لأنها ذات هيكل شفاف يسمح لِرَاكِبيها بتأمل أعماق البحر. فأتردد للحظة بسبب رؤيتي الضبابية وعدم قدرتي على تمييز الأشكال المحيطة بي بوضوح، الأمر الذي لم يعد يبعث على الاطمئنان، لكن جول حين يشعر بذلك يقول: لا تقلقي، سأقوم بإرشادك في هذه الرحلة البحرية.

وبالفعل أترك له حرية التصرف حين يقترح عليَّ أن نقوم بتأجير قارب لشخصين ثم يدعوني إلى الصعود على متنه، ثم يعمل هو على دفع القارب إلى أن يصل الماء إلى ركبتيه ليقفز بعدها إلى مكانه، فأسأله: إلى أين سنذهب؟

سنذهب إلى حيث يأخذنا مِجْدَافَينَا!

تروقني إجابته لأنني لا أعبأ بوجهتنا قَدرَ ما تهمني هذه الرحلة البحرية في حد ذاتها. إذ أشعر في داخلي بِحُرِّيَةٍ لم أشعر بها من قبل، وبراحة نفسية لأنني منعزلة عن بقية العالم في هذه اللحظة، حتى إنني لم أعد أكترث من قدرتي على استعمال مواقع التواصل الاجتماعي، كما لم أعد أقلق من إمكانية انخفاض عدد متابعي حسابي على إنستغرام، لأن كل هذه الأشياء تبدو لي الآن سطحية للغاية مقارنة بالحياة خارج الزمن على هذه الجزيرة، التي تنعم بطبيعة خلابة وشمس ساطعة.

نستغرق أنا وجول بضع دقائق كي نضبط إيقاعنا في التجديف معًا حتى يتيح لنا القارب الشفاف التمتع برؤية الشعب المرجانية والأسماك الصغيرة الملونة، وكأننا صرنا جزءًا من حوض سمك طبيعي كبير. في حين تتبع القارب أسماك حمراء مخططة بالأزرق، وبعدها تأخذ مكانها أسماك طويلة ونحيلة تحاول أن تستغل قوةَ دَفْعِ القارب لتتقدم نحو الشعب المرجانية بشكل أسرع كي لا تُهْدِرَ طاقتها..

ثم ألمح بين صخرتين محارات عملاقة تتدرج ألوانها بين اللونين الأخضر والأزرق، وكذلك ثعابين البحر النائمة في التجويف الصخري بينما نتقدم بإيقاع

جيد باتجاه الحاجز المرجاني، حين تنهمر علينا أمطار دافئة فجأة ويرتسم معها قوس قزح في الأفق.

يسألني جول:

هل ترين قوس قزح؟

وعلى رغم أنني أجهل المرض الذي أعاني منه، فإنني أعرف أنه باستطاعة عينيَّ مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية الساحرة.. فتسيل دمعة على خدي وأنا أجيبه: أجل، يا له من منظر رائع!

نشعر أنا وجول بالسعادة لأننا نتقاسم هذه اللحظة معًا، وكأن رابطًا قويًّا يجمع بيننا.

انظري!

يشير جول إلى شيء يتحرك تحت الماء خلف الحاجز المرجاني، والذي يشبه ِذَيْلِ حوت ضخم. مما يجعلني أفكر أن هذا المشهد بمنزلة تَجْسِيد للجمالِ المُطْلَقِ الذي تتضافر جميع عناصر الطبيعة لبُلوغه.

فيقول جول:

هل تودين أن نحاول الاقتراب من هذا الحوت؟

هل تستطيع تجاوز الحاجز المائي؟

أجل، إنني أعرف كيفية عبوره منذ أن أنقذني ويندل من الغرق، ألا ترغبين في مشاهدة الحوت من قرب؟

لا أعلم بماذا أجيبه، فمن جهة تفصلنا مسافة كبيرة عن الحوت والتي تمنعني من تركيز رؤيتي عليه وتأمل تفاصيله، ومن جهة أخرى فإن أعالي البحار عالم خطير كما كان يردد أبي دومًا، والإبحار فيها وحدك دون أن تكون لديك تجربة كبيرة يشبه التَّوَغُلَ في غابات «السافانا»، أو الذهاب لِتَسَلُّقِ جبل مرتفع جدًّا دون أن يرافقك مُرْشِدٌ خبير.

لكني أوافق على اقتراح جول على رغم ذلك كي لا أحرمه من خوض هذه التجربة: ربما تكون هذه الفرصة الأولى والأخيرة التي سَنُصَادِفُ فيها حوتًا مماثلًا، وأنا أريد أن نغتنم هذه الفرصة!

إذا كنت ترغبين في ذلك فعلينا الآن أن نُجَدِّفَ بقوة، وأنا سأوجّه قاربنا ليخترق الأمواج ويعبر التيار المائي.

إن القارب يَتَرَنَّحُ!

تجنبي القيام بحركات غير مدروسة، لأن هذا قد يتسبب في انقلاب القارب.

أشعر بالذعر لأن القارب يهتز بلا توقف.. لكني أجدف بكل قواي لِنَعْبُرَ المياه الزرقاء الصافية للبحيرة ونصل إلى مياه المحيط الداكنة.

الأمواج هادئة في مياه المحيط، مما يُمكننا من الاسترخاء والتنفس بعمق.

إنه هنا!

يطفو الحوت على مسافة أقل من مائة متر من قاربنا، يعجبني لونه الرمادي الغامق، وقفزاته في الماء التي تسمح لنا برؤية زعانفه الكبيرة جدًّا.

يقول جول:

هذا حوت أزرق على الاغلب، إنه ضخم! لا بد من أن طوله يبلغ على الأقل ثلاثين مترًا.

نبدو راغبين في الاقتراب من الحوت أكثر لعلنا نتمكن من لمسه، ولكن الدوامات المحيطة به جعلتنا نُغَيِّرُ رأينا.. إذ إنه لم يسبق لي قط أن رأيت حوتًا بهذا الحجم، أعتقد أنه يزن عشرات الأطنان.

انظر، إنه يتنفس!

يتدفق الماء كَنَافورة من فتحة النَّفْثِ[8] الموجودة في رأس الحوت بينما نظل مشدوهين أمام هذا العرض الرائع.

وبعدما كان الحوت يلتف في الماء، فها هو يندفع أمامنا بقوة وبِوَتِيرَةٍ حادة، ولهذا نجدف أكثر فأكثر كي نبتعد عنه خاصة أنه صار يطاردنا بإيقاع سريع، فربما نكون قد أخطأنا وتسببنا في إزعاجه.

آه!

أصرخ عندما تلامس زعنفة سوداء قاربنا، وأفلت مجدافي ليسقط في الماء تحت تأثير الفزع، وحينما أحاول التقاطه يمنعني جول من ذلك. ثم تظهر

على الجانب الآخر من قاربنا زعنفة كبيرة أخرى حيث يُخْرِجُ الحوت رأسه من تحت الماء، لينظر إلينا نظرة تجعل الدمِ يتجمد في عروقي، إنه الآن على مسافة بضعة أمتار منا حيث إنه بإمكان فَكِّهِ الضخم ابتلاع مقدمة قاربنا.

إن الحيتان تطاردنا!

أدير رأسي في كل الاتجاهات، وعلى رغم ضعف رؤيتي ألمح ما لا يقل عن خمس زعانف تندفع في اتجاه الحوت الذي كنا نتأمله، أدرك أخيرًا أن هذا الحوت هو الذي يتعرض للمطاردة من طرف هذه الحيتان المفترسة التي لا تترك لفرائسها أية فرصة للنجاة. وعلى رغم ذلك فالحوت الضخم يدافع عن نفسه رافعًا ذيله ليضرب صفحة الماء ثم يلتف على ظهره لِيُخيف خصومه.

يقول لي جول:

انظري إلى زعنفة ظهره!

إذ يتضح لي أن الحوت الذي كنا نتبعه أنثى تدافع عن صغيرها الذي تحمله على ظهرها، وتحاول أن تحميه من الهجمات المتتالية للحيتان القاتلة التي تحاول افتراسه.

أقول له:

لا يمكننا أن نسمح للحيتان المفترسة بالتهام هذا الحوت الصغير!

يرنو إليَّ جول دون أن يعرف بما يجيبني، إنه منذهل من الطاقة الهائلة للحيتان القاتلة التي تخلق سرعة قفزاتها أمواجًا خطيرة.

ثم يقول:

ربما إذا ضربتُ المياه بمجدافي سننجح في إبعادها.

فلتحاول، إنها فكرة جيدة.

لكننا نلاحظ في نفس اللحظة أن مياه المحيط قد تلطخت بالدماء بفعل الحيتان القاتلة التي شنت هجومها، حيث نشهد مقتل صغير الحوت ونحن عاجزون عن التدخل أو رؤية ما يجري تحت الماء، لكن صوت دوامات الأمواج التي يُحْدِثُها هذا الصراع وصوت اصطدام أجساد الحيتان، يشعرنا بأن هناك معركة طاحنة تدور في الأعماق، بل إنني أكاد أحس بأني أسمع بكاء الحوت الأم وصراخ صغيرها الذي راح ضحية الحيتان القاتلة.

تطفو على سطح الماء أشلاء الحوت الصغير وتنبعث منها رائحة نفّاذة تمتزج برائحة الملح والطحالب البحرية، مما يجعلني أرغب في التقيؤ. أما جول فإنه لا يتخلى عن شجاعته ويستمر في التجديف بلا هوادة على رغم أن الحيتان القاتلة تحوم حول قاربنا، حتى يمزق إحداها مجدافه بفكه فيفقد جول توازنه ويسقط فوقي.

أقول له:

احذر!

لكن قاربنا يوشك على الغرق، حيث يتمايل من كل الجهات، وأنا أصرخ كما لم أصرخ من قبل، لا بد من أننا سنموت بعد أن تُمَزِّقَ جسدينا الفُكُوكُ الفتاكة لهذه الوحوش البحرية. لكن الحوت القاتل الذي هاجمنا يختفي تحت المياه حاملًا في فكه بقايا المجداف.

تَشُلُّنَا فكرة ظهور حوت قاتل آخر ليُهاجمنا بدوره، فأقول بِهَلَعٍ: علينا أن نخرج من هذا المأزق!

لم يعد لدينا أي مجداف!

نظل بلا حراك خائفين من إثارة انتباه الحيتان حيث إن توازن القارب لم يستقر بعد لكن الدوامات تساعدنا على الابتعاد عن مكان المعركة، أرى الحوت الأم وهي تبتعد عن صغيرها الذي لم تتبقَّ منه سوى قطع صغيرة متناثرة رغمًا عنها حتى تختفي في المحيط، ويصبح لزامًا علينا أن نبتعد أيضًا قدر الإمكان، ولهذا يَجْثُو جول على ركبتيه ويشرع في التجديف جاهدًا باستخدام يديه، أقول له: أنت مجنون! يمكن أن تعود الحيتان لتمزق يديك في أي لحظة.

ليس لدينا أي خيار آخر يا كلارا، يجب أن نهرب قبل أن نصير ضحيتيهما القادمتين.

الجزيرة ليست بعيدة جدًّا عن المكان الذي عَلِقْنَا فيه، ولكن التيارات المعاكسة تجعل قاربنا ينحرف نحو الجهة الشمالية، لقد فقدنا السيطرة على قاربنا إلا أن جول يضاعف مجهوداته لنقترب من ضفة الشاطئ.

وسرعان ما نجتاز الشعب المرجانية بالفعل حتى نقترب من البحيرة، بينما تغمر الأمواج قاربنا وتدفعه في نفس الوقت إلى اليابسة. وأمامنا مباشرة يمد البركان النشط ذراعيه على المنحدرات العمودية التي تحيط ببحيرة

أخرى. وحين أتعرف على هذا المكان أحاول جذب انتباه جول: لا يمكننا أن نتوقف هنا لأن هذا موقعٌ مُقَدَّسٌ كما أخبرني ويندل.

يرد عليَّ جول في إنهاك:

أنا لا أتحكم في أي شيء، سنتوقف حيثما تقودنا التيارات.

يمتلئ قاربنا بالماء عن آخره حيث لا يتبقى الكثير من الوقت قبل أن يغرق، ثم يدفعنا التيار رغمًا عنا صوب المنحدَرين اللذين يُطَوِّقَانِ البحيرة الأخرى.

وهنا يصبح كل شيء هادئًا وكأننا في النعيم حيث أميز بعينيَّ المتضررتين لون الماء الأخضر الساحر في هذا المكان، الذي تغمره السكينة والدفء على نقيض صخب المحيط.

بينما تحلق ببغاوات فوق رأسينا وكأنها تُرحب بنا، ويُغْرِينا الشاطئ القريب بمغادرة القارب والسباحة في مياهه الصافية، لكن ذكرى هجوم الحيتان القاتلة تُثْنِينَا عن ذلك. حتى يرسو قاربنا على ضفة الشاطئ أخيرًا فأتنفس الصعداء، لقد نجونا!

وأقفز لأغادر القارب المغمور بالمياه، وأنا سعيدة بعودتي إلى اليابسة.

لكني ما إن أضع قدميَّ على الرمل حتى أصرخ..

أشعر بجسدي يحترق وكأنني أقف على لهيب من النيران، فالمناخ حار بشكل رهيب وحرارته تسري بداخلي فيغلي دمي ويوشك قلبي على الانفجار..

كلارا، كلارا، اهدئي!

أفتح عينيَّ لأجدني ممددة على الشاطئ تحت ظل نخلة، وجول يحاول الإمساك بِيَدَيَّ المتشنجتين، وهو يقول:

استرخي يا كلارا، سوف ينتهي الألم!

لكنه مخطئ فيما يقول لأن هذا الألم الغامض ينهش جسدي، يا له من ألم فظيع!

ثم يتابع جول:

لقد فقدتِ وعيكِ بعدما خطوت بقدمك على أشواك ظهر سمك الحجر، لقد اعتقدت في البداية أن قدمك قد اصطدمت بصخرة صغيرة، قبل أن أنتبه إلى أن ما تعثرتِ به هو جسم رخو له شكل غريب.

فأجيبه قائلة:

لقد اخْتَرَقَتْ أشواكه قدمي.

هذا مؤكد، وبعدها فقدتِ وعيكِ.

إنني أتألم يا جول، أتألم بشدة!

إنه تأثير السم، وهو سم قوي جدًّا، إذا أسعفتني ذاكرتي فإن أجدادي كانا يملكان كتابًا عن أنواع الأحياء البرية والبحرية الخطيرة، وقد قرأتُ فيه أن سم سمك الحجر قادر على شَلِّ العضلات في ثوانٍ معدودة، وإصابة الجهاز العصبي بِخَلَلٍ وظيفي.

أقول له ساخرة:

شكرًا لأنك تطمئنني أكثر!

كلارا، أنت فقدتِ وعيك بمجرد أن رَسَوْنَا على ضفة الشاطئ، وقد قُمْتُ بِحَمْلِكِ إلى أن بلغنا النخلة التي تتمدين تحتها الآن، كما أنني عندما تفحصتُ قدمك اكتشفت أن بها جروحًا عميقة.

هل حالتي خطيرة لهذه الدرجة؟

لا أدري، لكني كدتُ أموت من الخوف عليك على أية حال، لقد ظننتُ أنك توقفت عن التنفس أو أصبتِ بنوبة قلبية.

جسدي يحترق يا جول، يا له من شعور! لن أستطيع الصمود أكثر إذا ظللتُ في هذه الحالة.

لا بد من أنك تعانين من الحمى، لقد كنتِ تهذين بكلمات غير مفهومة.

تشرق الشمس في هذه اللحظة لكن أشعتها لم تتجاوز المرتفعات التي تُلْقِي علينا بظِلالها، بينما أضع رأسي على ما يشبه وسادة من الأوراق التي جمعها جول في خلال غيابي عن الوعي، والذي يبتسم لي تعبيرًا عن سعادته برؤيتي أستعيد وعيي بالكامل، فأسأله:

هل أمضينا ليلة أمس هنا؟

أجل، لقد سهرتُ طيلة الليل بجانبك لحراستك.

يمتد الألم القاتل المتواصل من قدمي إلى ساقي التي لم أعد أقوى على تحريكها، بينما أحس بالجفاف في فمي، فيجلب لي جول بعض الماء داخل نصف حبة من جوز الهند، أشربه ثم أقول له:

أنت مغامر حقيقي!

فترتسم على وجهه ابتسامة ويظهر عليه السرور لأنني أمازحه، قبل أن يقول لي بنبرة جادة:

علينا أن نتحدث، إن قدمك في حالة يرثى لها.

أرفع رأسي لألقي نظرة على قدمي فألاحظ أن حجمها قد تضاعف، وتبدو وكأنها قد تعرضت لحُروق جزئية، كما أن لون الجلد قد تحول إلى أزرق داكن، وكأنَّ ملاكمًا سَدَّدَ لها لكمات قوية.

لا يمكنك أن تبقي في هذا الوضع، أنت بحاجة إلى المساعدة الطبية، ونحن لا نملك أي شيء هنا لعِلاج قدمك وإبطال مفعول السم.

أهز رأسي موافقة، بعدما أدرك أن وضعي حرج لكنني لا أعي ما يقصده جول بكلامه هذا، فيُردف:

سأذهب للبحث عن المساعدة، وبما أن قاربنا لم يعد صالحًا للاستعمال، والعودة عبر السباحة ستكون مخاطرة كبيرة، إذ إنني سأحاول تسلق المرتفعات حتى أعبر إلى الجانب الآخر من الجزيرة، وبعدها سأعود عن طريق البحر رفقة فريق الإنقاذ كي نساعدك ونعيدك إلى فندق جزيرة السيدة إليوت على متن قارب.

ينقبض قلبي من فكرة أن يتركني جول وحيدة بلا حول ولا قوة وسط هذه الغابة الكثيفة وهذا المحيط الخطير، حيث إنني لا أملك القدرة على الدفاع عن نفسي.. فهذه الحالة الصعبة التي أمر بها جعلتني تحت رحمة القدر ببساطة.

لكنه يقول لي وهو يشير إلى حبات من الموز وثمرتين من جوز الهند تمكن من قطعهما إلى نصفين:

لقد وَفَّرْتُ لك بعض المؤن.

وهنالك أيضًا نصفا حبتين فارغتين من جوز الهند قد ملأهما بالماء.. لقد جهز كل شيء على أكمل وجه.

وإليك تلك العصا كَيْ تطردي بها الوحوش الضارية.

لا بد من أنه قد لاحظ القلق البادي على وجهي خاصة حين ذرفت عيناي المتعبتان الدموع، إذ يجلس بالقرب مني ويأخذني بين ذراعيه ويُقبل جبيني، فأشعر أنه سيبذل كل جهده لإنقاذي.

عليَّ أن أذهب الآن، إذا أسرعتُ في الحركة أظن أنني سأنجح في عبور المرتفعات قبل مغيب الشمس، أعرف أن الشمس تَغْرُبُ باكرًا في هذه الجزيرة، ولكنني إذا وصلتُ إلى الجانب الآخر منها في الوقت المناسب، فربما حينها سنتمكن من العودة لإنقاذك قبل حلول الليل، وإلا..

لا ينهي جول كلامه وإنما يمسك يدي بقُوة مما يجعلني أشعر بالاطمئنان، فيستأنف قائلًا:

وإلا سيلزمك أن تكوني شجاعة لتُمضي الليلة القادمة وحدك إذا لم يسعفني الحظ للعودة قبل حلول الظلام، وعندما تستيقظين ستجدينني هنا مع فريق الإنقاذ، هذا وعد!

أضمه بقوة وأنا أُمَرِّرُ أصابع يدي على وجهه بحَنان، فيطبع قبلة أخيرة على جبيني قبل أن يودعني، ثم أراقبه وهو يبتعد عن الشاطئ إلى أن يختفي داخل الغابة.. وهأنا قد أصبحتُ وحيدة تمامًا الآن!

ربما سيرغب أي شخص على سطح الأرض في أن يكون جالسًا في مكاني، لأن المنظر الطبيعي المحيط بي والذي يجعلك ترغب في مشاهدته بِزاوية ٣٦٠ درجة، حيث النباتات الخضراء التي تَحُدُّ الشاطئ الرملي الأبيض، والذي يُبْرِزُ بدوره اللون الزمردي للبحيرة الصغيرة التي تَحُفُّهَا المنحدرات.

ومن المكان الذي أجلس فيه الآن بوسعي أن أتأمل جزءًا من المحيط من بعيد، حيث أشاهد أمواجه التي ترتطم بالحاجز المرجاني، وسَلطعونات البحر الحمراء التي تخرج من الماء في مَوْكِبٍ رَاقِصٍ طريف.

لكن أحيانًا ما يَصْدُرُ ضجيج من الغابة كَصَوْتِ انكسار غصن أو حفيف الأوراق التي تهتز بفعل النسيم، مما يجعلني أنتفض لأنه يُهَيَّأ لي أنه ثمة شخص أو حيوان بَرِّي يتربص بي، وأمسك العصا التي تركها لي جول بقوة، لكن لا شيء من مخاوفي يتحقق.

ثم أفكر في الأرواح الصغيرة التي حدثني عنها ويندل، هذه الأرواح التي تسكن في الغابة، وأنه ربما تكون هي التي تستمتع بإثارة فزعي، لكنها فكرة غير باعثة على الاطمئنان أبدًا، فأنا أعلم أنني عالقة في أرض مقدسة أو بالأحرى مقبرة قديمة لا ينبغي أن أوجد بها.

أتفحص جراحي لأجد قدمي متورمة بشكل مخيف ولونها يميل إلى السواد، حتى إن أظافري تكاد تختفي تحت هذا الجلد المنتفخ والمشدود، وكلما تحسستُ قدمي أشعر بألم لا يطاق، أما ساقي فقد تحولت للون الأزرق بالكامل حتى لم أعد أقوى على رفعها أو التحكم بها.

تسترجع ذاكرتي كل الأشياء المروعة التي سبق ورأيتها على الإنترنت كالأقدام المبتورة للأفارقة من ضحايا الجُذام، صور المصابين بالغرغرينا التي تتسبب لهم في موت أنسجة الجسم، والحلول المتطرفة التي يلجأ إليها أبطال أفلام الرعب الدموية، وأتخيل السيناريو الأسوأ إذا اضطررت إلى الخضوع لعملية بتر لسَاقي حّدَّ الركبة، وأنه سيتحتم عليَّ أن أستعين بعُكَّازَيْنِ للمشي، وسأرتدي سراويل طويلة وفضفاضة لإخفاء إعاقتي.

ثم أحاول أن أطرد هذه الأفكار السوداء من ذهني، وأتذوق قطعة من ثمرة جوز الهند التي جلبها لي جول، فيوقظ طعمها اللذيذ حواسي، وترطب حلاوتها الطبيعية شفتيَّ اللتين أصابهما الجفاف بسبب الحمى. ثم أحصي المؤن المتبقية لي، وأنا أفكر في إمكانية قضائي لليلة القادمة وحيدة في هذا المكان المهجور، فأقرر أنني لن أتناول سوى قطعة واحدة من الفاكهة كلما شعرت بجُوع شديد، أو فلنقل إنني سأحاول السيطرة على جوعي قدر الإمكان.

أما بالنسبة إلى الماء فإن الأمر أكثر تعقيدًا، حيث إنني أشعر بالعطش للغاية إلى درجة أنه لو كان بإمكاني الحصول على قنينة كبيرة من الماء، كنت سأشربها دفعة واحدة، لكنني مضطرة إلى بالاكتفاء بأخذ رشفات صغيرة أحتفظ بها لأطول وقت ممكن داخل فمي؛ بهدف ترطيب حنجرتي ولساني قبل أن أبتلعها..

أدرك أنني لست قادرة على الوقوف، كما أنني عاجزة عن السير خطوة واحدة بطبيعة الحال، لكن عليَّ أن أصبر وأتحمل آلامي على أمل عودة جول قريبًا. فأرسم بأصبعي على الرمل مربعات شبكة لعبة «موربيون»، وأشرع في اللعب ضد نفسي، لكن على رغم كل محاولاتي فالوقت يأبى أن يمر بسرعة وتظل الشمس ساطعة في السماء.

أتذكر جول والقبلتين اللتين طَبَعَهُما على جبيني.. لا أدري إذا كان ما أحسه نحوه ناتجًا عن وجودي بهذا المكان الشاعري، أو إلى كون بقائي على قيد الحياة يعتمد على إنقاذي لي، لكنني متأكدة من شيء واحد، وهو أنه لم يحدث قط أن خفق قلبي هكذا لأي فتى قبله.. فعلى الجانب الآخر من الكوكب وتحديدًا في تولوز، كان جول بالنسبة إليَّ شخصًا غير مثير للاهتمام، ولكن هنا، اتضح لي أنه مغامر ساحر.

أتساءل كيف سيكون رد فعل والديَّ عندما سيعلمان بكل ما تعرضتُ له، فأنا متأكدة من أن أمي سَيُجَنُّ جنونها كالعادة، وستصب جام غضبها على أبي الذي من المتوقع أنه سيرفع قضية على وكالة السفر والفندق الذي نقيم فيه بجزيرة السيدة إليوت، على رغم أن هذا لن يمنعه من العثور على أسباب لِيُؤَنِّبَنِي ويُحَمِّلَنِي جزءًا من مسؤولية ما حدث لي. لكن كل هذا لا يهمني حين ينشغل عقلي باستعراض المناظر الرائعة التي سَنَحَتْ فرصة مُعاينتها حيث كنت أراقب تلك الشواطئ الخلابة، البركان النشط والقوة الهائلة لحِممه المنصهرة، والمواجهات بين أكبر وأخطر حيوانات كوكب الأرض في صراعها من أجل البقاء.. ولهذا بالرغم من تعرض قدمي للتسمم بأشواك سمك الحجر

ومعاناتي من مشكلات الرؤية، فإنني لن أندم أبدًا لأنني خُضْتُ هذه الرحلة التي أهداها لي القدر.

أعتقد أنني غفوتُ للحظات ارتحتُ فيها من الألم الذي يفتك بسَاقي قليلًا، حيث مر الوقت دون أن أعي ذلك، وقاربت الشمس على المغيب لكن جول لم يعد بعد.

ألاحظ بعد ذلك الجزور المتشعبة في الرمل لأشجار ذات الجذوع العريضة واللحاء الأبيض وفي كل مرة أنظر فيها إلى هذه الأشجار، أشعر بأنها لم تعد في أماكنها الأصلية، وكأنها تلعب معي لعبة الغميضة، ربما أن معاناتي من الحمى أو رؤيتي المشوشة هي ما تتسبب في ذلك، لكني أحيانًا ما ينتابني إحساس غريب بأنني مُرَاقَبَةٌ من قبل أحد ما، إنه إحساس مُحَيِّرٌ لكنني لا أشعر بالقلق حياله.

لا بد من أنني أُصِبْتُ بالهذيان والتشنجات أيضًا في خلال نومي، حيث تسببت في انسكاب الماء الذي تركه لي جول، فقد كان يجب عليَّ أن أكون حذرة أكثر وأن أضع الماء في مكان بعيد عني.. ولهذا ألعن نفسي لأنني لن أستطيع البقاء دون ماء الذي يمثل عنصرًا أساسيًّا لأستمر على قيد الحياة.. وأدرك أنه عليَّ إيجاد حل لذلك.

وفي أثناء مراقبتي للمكان لاحظت آثار قدميْ جول على الرمل، والتي تتوغل في الغابة وتقود بلا شك إلى نبع الماء، وقد فكرت أنه إذا كان جول قد نجح في الوصول إليه دون أن يعترضه أي عائق، فإنني لا أملك سببًا لأتردد في المجازفة لبلوغه والحصول على الماء، ولهذا أمسك قشرتيْ جوز الهند وأزحف على الرمل الساخن، فتعذبني ساقي بشدة وتتحول قدمي إلى كتلة من الألم، لكنني أصر على أسناني وأراقب الأرجاء لأنني لم أنسَ القائمة الطويلة للحيوانات الخطيرة التي قمتُ بالاطلاع عليها قبل رحلتي إلى أستراليا.

أصل بعدها إلى الغابة حيث يجب عليَّ أن أجتاز الحاجز الذي تشكله جذور هذه الأشجار البيضاء الضخمة، لكن كل حركة أقوم بها تجعلني أعاني أكثر.. وعندما تصبح آثار قدمي جول أقل وضوحًا أركز برؤيتي المتعبة بدقة أكبر كي أكتشف الطريق الذي سَلَكَهُ.. لكنْ يدايَ أيضًا تصيبهما التعب جراء الزحف نحو الغابة حتى أتوقف تحت نباتات السَّرْخَسِ[9] فيزداد عطشي بشكل رهيب ويلزمني أن أعثر على نبع الماء.

وفجأة تتوقف الطيور التي تُعشش في الأشجار الكثيفة عن الزقزقة، وبعدها بثوانٍ أسمع وقع أقدام تقترب مني. فأسرع لأعبر بستان الشجيرات

زاحفة على بطني، دون أن أكترث لشَبكات العناكب المنسوجة حول هذه الشجيرات، حتى أعثر أخيرًا على صخرة ينساب منها الماء وصولًا إلى بِركة خضراء، فأُبْعِدُ بِيَدي ورقة شجر كانت تطفو على سطح البركة وأغمر قشرة جوز الهند في الماء لأملأها وأروي عطشي. حتى ينقذني الماء العذب من الموت عطشًا، ويلطف جفاف حلقي، وهأنا من اعتادت على ألا تشرب سوى المياه الغازية تقريبًا، لم يسبق قط أن استمتعت بشُرب الماء هكذا طيلة حياتي!

أضع قشرة جوز الهند أرضًا، لأجد غصن شجرة قريبة مني يتحرك على حين غرة، فأقفز هلعًا قبل أن أدرك حاجتي إلى بعض الوقت كي أركز وأستوعب ما يجري..

وإذا برجلٍ يقف قبالتي ويراقبني في صمت!

إن أحد السكان الأصليين يقف على مسافة مني لكني أجد صعوبة في تمييز ملامحه، فأرمش بعينيَّ عدة مرات قبل أن تتضح الرؤية.. وأدرك أنه رجل عجوز ذو بشرة سمراء ممتلئة بالتجاعيد، شعره أبيض مُجَعَّدٌ ولحيته يغزوها الشيب، وكأنه «سانتا كلوز» المناطق الاستوائية، أما جسده فهو هزيل تكاد تبرز عظامه لكنه مشدود على رغم ذلك، كما يضع مِئْزَرًا قماشيًّا على خصره ويعتمر قبعة مصنوعة من أوراق الباندانوس، لكنه عندما يحدق إليَّ بعينيه العسليتين أشعر بنظرته الثاقبة وهي تسبر أغوار روحي.

يصدر صوت من شفتيْ هذا الرجل الغريب وهو يمضغ ورقة شجر كما لو كانت علكة.. ولا تبدو عليه العدوانية بالرغم من أنه يحمل عصا ذات رأس حاد ومُدَبَّبٍ تجعلها أشبه بِرُمْحٍ، فأفكر في الهرب لكنني أعلم أنني لن أتمكن من الابتعادً كثيرًا عنه كوني أزحف على الأرض، وحين يتقدم هذا الرجل الغريب نحوي دون أن ينطق بكلمة واحدة، أكاد أموت رعبًا بينما أحاول أن أتقهقر إلى الخلف لكنني عاجزة عن السير كعنكبوت بلا أرجل.. فأواصل الزحف وأنا خائفة جدًّا.. وحينها يمسك الرجل الغريب قدمي السليمة ليمنعني من الهرب، فأرتعد لأنني لا أعلم ما الذي قد يفعله بي..

لكنه يقول لي:

صه!

وأندهش حين يطمئنني بإيماءات لطيفة ثم يتحسس ساقي التي ينخرها سم سمك الحجر. لكنه يتمتم بكلمات غير مفهومة في نفس الوقت مما يُشعرني بعدم الأمان، فأهمس له بِبَلاهة:

أعتذر لأنني أُوْجَد في أرضكم المقدسة، لقد جَنَحَ قاربنا على الشاطئ ولم أعد قادرة على المشي.

فيجيبني:

إن الأرض مِلْكٌ للجميع، علينا أن نحترم ساكنيها فحسب.

أسترخي بفِعل صوته العذب المريح، وأردف:

ويندل.. هل تعرف ويندل؟ لقد أخبرني بأن هذا المكان مقدس لذا فإن زيارته محظورة.

ينظر إليَّ وكأن هذا الاسم لا يعني له شيئًا، فأشعر وكأنني أحدثه بِلُغَةٍ لا يعرفها. ثم يرفع قدمي المنتفخة إلى فمه، فأحاول أن أمنعه لكنني عاجزة عن ذلك.. وإذ به يلعق جراحي حتى أدرك أخيرًا أنه يحاول امتصاص السم من قدمي المصابة، وعلى رغم أنني لست متأكدة من فعالية هذه الطريقة فإنني تأكدت على الأقل من أن نياته طيبة. حيث أخذ يمسح على قدمي بيديه الدافئتين وقبضته القوية وهو يردد تعويذات غريبة حتى جعلني تدليكه لقدمي أشعر بتحسن.. فينهض بعدها ويختفي لعدة دقائق خلف شجرة، بينما أسمع صوت أغصان تتكسر. وعندما يعود أراه يحمل شيئًا أشبه بِنَقَّالَةٍ مصنوعة من فروع الشجيرات، ومغطاة بنباتات كثيفة، حيث يثبتني عليها بِرِقَّةٍ وحين أشعر كونها مريحة شيئًا ما، يقترب أكثر من وجهي ويتأمل عينيَّ قليلًا قبل أن يقول:

عيناكِ ستنطفئان قريبًا.

يتجهم وجهه، حيث يبدو وكأنه يبحث عن علاج يستحيل إيجاده. ولأن هذا الرجل العجوز يشبه الساحر فإن عجزه عن العثور على وسيلة لإنقاذ عيني يجعلني أشعر بالجزع أكثر وأكثر، فأسأله بهَلع لأن مشكلات رؤيتي تشغلني أكثر من الحالة المتدهورة لقدمي:

ستنطفئان؟ ما الذي تقصده بقولك هذا؟

عيناك تحتضران ببساطة، لقد قُضِيَ الأمر!

أراه يتحدث بشكل طبيعي مباشر لكن نبرة صوته خالية من التعاطف وهو يخبرني بهذا الاستنتاج، إذ بدا وكأنه يتلو قرارًا صادرًا عن هيئة عليا وغير قابل للنقض! ولهذا فإنني أعجز عن كتم حزني، فتتلألأ الدموع على خدي ويتردد صدى كلمة «عمياء» بداخلي، وأفكر في احتمالية أن يكون هذا العجوز المجنون مخطئًا، لأن أبي قادر على جعل أكبر اختصاصيي طب العيون يعالجونني بأحدث التقنيات وأكثرها فعالية، كما أنني خائرة القوى الآن لذا يلزمني ألا أسمح لنفسي بالتأثر بهَذيان هذا المشعوذ.

وفي تلك اللحظة يشرع الرجل في رفع النقالة بيديه القويتين ويسحبني معه عبر الغابة، حيث تمتلك اهتزازاتها تأثيرَ مُنَوِّمٍ عليَّ، فأغفو شيئًا فشيئًا وسط طنين البعوض الذي يدور من حولي، إلى أن يتوقف العجوز ليأخذ منجلًا من حقيبة جلدية يحملها على ظهره، ثم يقطع قطعة من خشب شجرة ليمون ويشذبها جيدًا قبل أن يقسمها نصفين بشكل طولي، وبعدما يعطيني نصفًا من

هذه القطعة التي تفوح منها رائحة الليمون يجمع أغصانًا ليُشعل النار، ويستعيد مني القطعة مجددًا كي يضعها فوق اللهب إلى أن تبدأ في الاحتراق، ثم يعيدها لي قائلًا:

خذي، لن يزعجك البعوض بعد الآن!

تغمرني رائحة الليمون الفَوَّاحَةُ حيث تخترق فمي وأنفي وتتخلل مسام جسدي فأشعر وكأن هنالك دِرعًا خفيًّا يحميني من هذه الحشرات المؤذية. وبينما يستأنف الرجل العجوز طريقه، أسمح لنفسي بالاستمتاع باهتزازات النقالة مجددًا، وأغمض عيني المتعبتين. وحينما أستيقظ أجد نفسي نائمة في وضعية مريحة بمَدخل مغارة حيث غابت الشمس وامتلأت السماء بتدرجات اللون الأزرق، التي لم تفسح المجال لليل كي يحل بعد كما ألمح أيضًا بضع نجمات تلمع وسط السحاب الخفيف.

أرى نارًا موقدة بالقرب مني، إذ يبدو أن مُنْقِذِي قد أشعلها قبل أن يغادر هذا المكان، كما أنه ترك لي بعض الفواكه التي قطعها بعناية، فأقضم قطعة من المانجا اللذيذة والغنية بالسوائل الحلوة، ثم أُتْبِعُهَا بكمية وفيرة من قطع الأناناس التي أتناولها حتى تمتلئ معدتي، وتنتشي حواسي بهذه النكهات الطبيعية المسكرة، حيث يظل مذاقها الذي لا يضاهيه شيئًا طويلًا في فمي، وحينها أتذكر سندويتشات الهامبرغر عديمة الطعم التي كنت أتناولها في مطاعم الوجبات السريعة المجاورة لمدرستي وأفهم معنى جملة «الأطعمة غير الصحية» الآن فحسب.

لقد وعدني جول بأن يعود قبل حلول الليل، لكني أتمنى ألا يكون منشغلًا بالبحث عني على الشاطئ في هذه الأثناء، فأنا أثق به وأعلم علم اليقين أنه سيفعل ما في وسعه ليعثر عليَّ وينقذني في أسرع وقت ممكن، فلا شك أن النقالة التي حملني عليها الرجل العجوز قد خلّفت آثارًا سيتمكن جول من اتباعها حتى يصل إلى تلك المغارة.

وفجأة يظهر الرجل العجوز قادمًا من طريق أسفل المغارة، بينما يبتسم لي بفَمه شبه الخالي من الأسنان وهو يمضغ بعض أوراق الشجر المختلطة بالتراب، ثم يبصق هذا الخليط في يديه ليعجن منه ما يشبه كرة لزجة، فأسأله:

ما هذا؟

هذا لتخفيف ألمك.

إذ بدا أنه يصنع مرهمًا طبيعيًّا من أجل قدمي، أتمنى أن ينجح في تخفيف ألمي بالفعل.

يضع المرهم على قدمي كلها لأستشعر كونه منعشًا ومريحًا.

هل سيشفيني هذا المرهم؟

لا، ولكنه سيعفيك من الشعور بهذا الألم.

لا أفهم أي ألم يقصد بقوله هذا، إلى أن يمسك منجله الذي لم أنتبه إلى أنه يقوم بتسخين نصله فوق النار الموقدة بجانبي، وحينها يتبين لي أن المرهم ليس بعلاج بل أنه بمنزلة مخدر.

لاااا!

يتشنج جسدي وأنا أحاول سحب ساقي المصابة التي ما عُدْتُ قادرة على التحكم بها، لكن هذا العجوز يقبض بقوة على ساقي المنتفخة تمامًا كما فعل في أول مرة صادفتهُ فيها، فأحاول أن أجعله يتوقف قائلة:

لا، أرجوك، فريق الإنقاذ في الطريق.. لن يتأخروا في تقديم العلاج المناسب لي.

لكنه يتظاهر بأنه لا يسمعني، فأصرخ.. وأبكي حتى ينساب العرق على وجنتي، آملة أن يسمعني أحدهم أو ينجح جول في إنقاذي.

لكنه يهمس لي وكأن يعرف أن كل شيء سيسير على ما يرام:

اصمتي!

وحين يقترب نصل المنجل من ساقي، أضغط على أسناني إلى درجة أنني كدت أعض لساني كضحية مسكينة أمام هذا العجوز المجنون، ثم أغمض عيني وأنا أصلي وأدعو أن يكون كل ما يحدث مجرد كابوس!

أفتح عيني لأكتشف أن الرجل العجوز قد سحب نصل منجله من فوق قدمي، وأنني لم أعد أشعر بآثار الكَيّ، وإنما بحرارة هائلة تجتاح جسدي فحسب، إذ يبدو أن المرهم له مفعول سحري بالفعل، لأن جراحي تبدو جافة الآن لدرجة أنها لم تعد تؤلمني.

تظهر أمارات الرضا على الرجل العجوز وهو يقول لي: إن الحرارة تُبْطِلُ مفعول السم.

ومن دون أن يضيف أية كلمة أخرى يأخذ علبة مصنوعة من الخيزران والتي تحتوي على قطع من المطاط الأسود، أو على الأقل هذا ما ظننته قبل أن أرى هذه الأشياء السوداء الصغيرة تتحرك بين أصابعه، فأسأله: ما هذا؟

إنها ديدان العلق[10]

ماذا؟

أحاول سحب أصابع قدمي مجددًا، لكن هذه الحشرات الصغيرة تتشبث بها لتمتص ما تبقى من السم الذي يسري داخل عروقي.

ثم يتابع قائلًا:

يجب أن نقوم بتصريف الدم الفاسد، عليك أن تكوني ممتنة لهذه العلقات التي تعتني بك.

لكن كل ما أفكر فيه في هذه الأثناء هو إمكانية هَزِّ قدمي لأبعد هذه الحشرات المقززة عني، إنها تمتص دمي كمَصَّاصي الدماء في أفلام الرعب بالضبط.

لكن الرجل العجوز يقترب مني ليطمئنني:

لا تقلقي أيتها الفتاة الصغيرة، ألقي نظرة حولك لِتَرَيْ كم أن طبيعتنا الأم معطاءة وكريمة، إنها تهدينا كل ما نحتاجه.

لا أرغب في معارضته بقول إن هذه الجزيرة ينقصها الأسواق التجارية الكبرى، مراكز التجميل وشبكة الإنترنت.

بينما يردف وهو يشير إلى نوع من شجر اللَّبخ[11]: عليك أن تفتحي قلبك فحسب لتشعري بالعطايا التي يمكن للكائنات الحية الأخرى أن تقدمها لك، هذه النبتة على سبيل المثال بإمكانها أن تساعدك كي تلتئم جروحك دون أن تُخَلِّفَ أية نُدوب، حيث يكفي أن تفركيها على جراحك، وأراهنك على أن كل الصيادلة في بلدك المتحضر لا يملكون نفس القدر من الأدوية والعلاجات المتوفرة في هذه الغابة.

ثم يضحك كطِفل بعد قوله الطريف هذا.

فأسأله بإلحاح:

هل بإمكانك أن تُبْعِدَ هذه العلقات عن قدمي؟

فيلتقط قدمي ليفحصها وبعدما يضغط على البطن المنتفخ لإحدى العلقات يقرر أنه من الممكن أن يبعدهم عني كي يضع حدًّا لمعاناتي، حيث يأخذ العلقات ويطلق سراحها في الغابة من جديد دون أن أنبس ببنت شفة أو أعترف له بأنني أشعر بتحسن كبير، على رغم أنني أفكر أنه على رغم طريقته البدائية والمثيرة للاشمئزاز في علاجي فإنه معالج ماهر وحقيقي ولولا مصادفتي له وتدخله لإنقاذي، فلا أدري ما المصير الذي كنت سألقاه.

تلمع النجوم فوق الأشجار العملاقة، بينما تنبعث صرخات حيوانات يصعب عليَّ تحديد نوعها، صرخات تمزق سكون الليل بينما يجلس منقذي متخذًا وضع القرفصاء بجانب النار المشتعلة التي تفقد وهجها شيئًا فشيئًا.

أسأله:

هل تعيش هنا وحدك؟

فيتفرس في ملامحي وكأنني قد تفوهت بحَماقة كبيرة للتو: وحدي؟ هل تشعرين بأننا أنا وأنت وحدنا هنا؟!

لا أعرف كيف أجيبه، فعلى رغم أنني اعتدت العيش في مدينة حضرية فإنه ينتابني شعور غريب في أعماقي أعجز عن شرحه لكنه يخفف من وطأة وحدتي، وهو الشعور بالاكتفاء وبعدم احتياجي لأي شيء آخر عدا هذه الغابة الخصبة، الكائنات الحية التي تسكنها، وهذا السقف المطرز بالنجوم. وكأنني

في عرض مباشر مستمر ومتاح أمامي كي أغترف منه السعادة والرضا بلا حدود.

هنا يرقد كل أسلافي، إنهم يحدثونني، ينصحونني ويمنحونني القوة والشجاعة، بل إننا نضحك أحيانًا مع بعضنا، ثم إنه هناك الأرواح الصغيرة أيضًا التي تُعَمِّرُ تلك الغابة وتعود أصولها إلى الطُوطِمِ الحامي.

أنظر إليه بعينيَّ المتسعتين على آخرهما لأنني لا أفهم شيئًا من كلامه، فيسألني: هل تعرفين ما هو الطوطم؟

فأهز رأسي ليتابع حديثه قائلًا:

إنه الرابط الروحي الذي يجمع بين الإنسان والحيوان الذي يرتبط به لأن كلنا مرتبطون ببعضنا.

وبينما أنصت لهذا العجوز الذي يبدو أنه آخر السكان الأصليين لأستراليا، أتساءل عما إذا كان الإنترنت تجسيدًا ماديًّا لهذه لفكرة «ارتباط حيواتنا واتصالنا جميعًا ببعضنا على رغم المسافات»، لكنه يضيف: يعود تاريخ مخلوقات الطوطم إلى زمن الأحلام الذي خُلِقَ فيه الإنسان، حيث خرجت من الأرض ومن المحيط والفضاء أيضًا مخلوقات عملاقة اجتاحت أراضينا، ومن بين هذه المخلوقات الغريبة كان هناك ثعبان بألوان الطيف حجمه أكبر من حُوتَيْنِ ضخمين، والذي عاش بين هذه المناظر الطبيعية والأنهار والجبال حتى استقرت روحه في الأرض وصارت بعض هذه الأراضي مقدسة، ويجب علينا أن نكون مُمْتَنِّينَ لتمكننا من الحياة فيها على رغم كل ذلك.

أقول له:

سبق وأخبرني ويندل بأن حيوان الطوطم الخاص به هو عنكبوت، وأنت ما هو الطوطم المرتبط بك؟

يحدق إليَّ وهو يقول بلؤم:

خَمِّنِي!

فأشعر أنني تمكنت أخيرًا من ترتيب قطع لعبة البازل تلك، أو فك شيفرة هذا اللغز الصعب الذي أعيشه، إذ إنني متأكدة الآن من أن هذا الرجل الماثل أمامي هو الذي كان يناديني في أحلامي، فأجيبه: طائر، اليس كذلك؟

وعندما يداعب لحيته ليخفي ابتسامة ماكرة، أردف قائلة: إذًا أنت من كنت تناديني في أحلامي؟ أنت من طلب مني المجيء إلى هنا؟

أنت تعرفين هذا، لماذا تطرحين عليَّ هذا السؤال إذًا؟

أشعر بأن إجاباته غامضة، ولا أعلم كيفية تفسيرها.

أنا مرتبط بطُوطم طائر الحَسُّون، ولهذا أعيش في الغابة لا على الشاطئ، فأنا رجل الأدغال.

وكيف لي أن أعرف حيوان الطوطم المرتبط بي؟

لستِ بحاجة إلى معرفته لأنه سيزورك حتمًا، وحينها ستفهمين الصِّلَةَ التي تجمعكما.

تلفظ النار أنفاسها الأخيرة بينما يتمدد الرجل العجوز فوق حصيرته؛ كي لا يكسر قوانين الليل والنوم التي وضعتها الطبيعة. فأتمدد مثله تمامًا وأسأله: أنا لم أعرف اسمك بعد.

أدعى «إنسان» كما يُدعى طائر الحسون حسونًا، وأنا لا أختلف عن أبناء جنسي في شيء، فكلنا متساوون في تلك الطبيعة الواسعة.

ألاحظ أنه لا يسألني عن اسمي، حيث يتكون لديَّ انطباع بأنه يعرفني مسبقًا، وأنه ليس بحاجة إلى معرفة بعض التفاصيل عن حياتي. لكنه يسألني: لقد رأيتُ قاربك الذي جنح على الشاطئ، ما الذي حدث لك؟

أحكي له عن رحلتي الاستكشافية رفقة جول على متن قارب الكاياك، وجولتنا التي استمتعنا فيها بتأمل الأعماق البحرية إلى أن لمحنا ذيل الحوت الضخم اللطيف، ولا أغفل أيضًا ذِكر تفاصيل عبورنا للممر البحري لنصل إلى أعالي البحار، كما أحدثه عن خوفي وغضبي عندما هاجمت الحيتان القاتلة صغير الحوت، هذه الحيتان المتوحشة التي بعدما قتلت صغير الحوت هاجمنا أحدها وسحق مجدافنا الأخير، ثم أكمل: لقد انجرفنا إلى هذا الشاطئ بسبب التيارات البحرية التي ساعدتنا على عبور الممر البحري، وفي أثناء مغادرتي للقارب خطوت بقدمي على أشواك سمك الحجر.

لم أنتبه حينما قام الرجل العجوز من مكانه كي يدنو مني بينما تتأملني عيناه وكأنه يحاول أن يقرأ ما بداخلي، حيث أشعر للمرة الأولى بأنه مصاب بالحيرة، ثم يقول: إذا كان المحيط قد أتاح لك فرصة رؤية هذا المشهد، وما دام أن الحيتان القاتلة قد هاجمتكما أنت وصديقك، كما كان سمك الحجر

بانتظارك على ضفة الشاطئ الذي رَسَا عليه قاربك، فلا شك في أن الطوطم المرتبط بك كائن بحري إذًا.

يرفع أصبعه صوب السماء وتتسع عيناه وهو يقول:

أنت مرتبطة بشيء قوي جدًّا بالتأكيد، شيء يُخيف الكائنات الأخرى، لا بد من أن حيوان الطوطم الخاص بك استثنائي!

وبينما يتجمد الدم يتجمد في عروقي من حديثه الغامض، أجيبه: لن أذهب للسباحة مرة أخرى!

لكنه يهز رأسه معارضًا وهو يقول:

أنت مخطئة، عليك أن تستعدي للغوص ابتداءً من يوم غد!

أشعر بتدهور حالة عيني في الصباح الباكر بشكل كبير، ولا أدري إذا كان هذا نتيجة للتوتر الذي أصابني من فكرة الغوص التي اقترحها عليَّ «إنسان».. إذ لم أعد أميز سوى أشكال ضبابية وهالات الألوان من حولي، وحتى حينما أحاول أن أركز نظري على شيء ما كَحَجَرٍ أو ورقة شجر لا أستطيع ذلك، وكأن ضبابًا كثيفًا يحيط بي.

يزعجني هذا الشعور بشدة، لأنه يجعلني أمُر بحالات مزاجية متقلبة حيث إنني ما إن أستعيد الأمل في بعض الأحيان حتى أصاب بالانهيار فجأة.

وفي تلك اللحظة أسمع حَسِيسَ النار بالقرب مني، وأشم رائحة لحم مشوي، رائحة توقظ الجوع الكَامِنَ بداخلي. لكني عاجزة عن رؤية إنسان وهو يقوم بالشواء، ولا أميز سوى بقعة صفراء تتحرك أمامي، حيث أظن أن مصدر هذه البقعة هو لهب النار. حتى يتناهى إليَّ صوت إنسان الذي يوجد على يميني وهو يسألني: هل ترغبين في تناول اللحم المشوي؟

فأدير رأسي وأنا أتظاهر برؤيته وألاحظ أن حاستي السمع والشم تحاولان تعويض حاسة البصر شيئًا فشيئًا، دون مجهود واضح مني.

فأجيبه:

أجل، أشكرك.

ثم أسمعه يسحب سِيخًا من النار، لكني أنتظر لدقائق طويلة دون أن يحدث أي شيء.

ليسألني بعدما خَمَّنَ ما أعاني منه: أَلَمْ تعودي قادرة على الرؤية؟

بلى.. حسنًا، في الحقيقة.. لا أعلم!

أفهم أنه يمد لي سيخ لحم مشوي لم أتمكن من رؤيته، حيث يقترب مني ويمسك يدي كي يساعدني أن أمسك بالسيخ وتناول اللحم المشوي، وهو يقول: عيناك تُحتضران، عليك أن تعتادي الحياة دون الاعتماد على حاسة بصرك.

لا أرغب في سماع الكلمات التي يقولها، كما أنني لا أملك أدنى رغبة في الرد عليه، فأنا أريد البقاء على قيد الأمل! ومن ثم ألتقط السيخ بطريقة آلية لأتناول قطعة من اللحم الشهي والتي أمضغها على مهل لأتجنب الرد على إنسان، لكنني أود معرفة مصدر هذا اللحم الذي يَقْطُرُ لذة هكذا، فأسأله: إنه لذيذ للغاية، ما هذا؟

إنه جرذ.

أختنق لما قال راغبة في بصق قطعة اللحم المقززة هذه من فمي. فيضغط إنسان مرة أخرى على يدي ويحدثني بصوته العذب: ما أهمية معرفة نوع اللحم الذي تتناولينه؟ اتركي حواسك تقودك، أطلقي العنان لفَمك، دعي لسانك ومعدتك يخبرانك إذا كان ما تأكلينه شهيًّا وصحيًّا أم لا.. فحين يُطهى اللحم لا تعود هناك أية أهمية لنَوعه أو شكله.

أعترف بأن طعم هذا اللحم يشبه طعم الدجاج المشوي، إذ إنه مُتَبَّلٌ ببراعة بالنباتات العطرية، مما جعل طعمه يظل لفترة طويلة في فمي، لم أتخيل قط انه قد يأتي يوم أقول فيه هذا بعدما أتناول جرذًا مشويًّا.

وفجأة يترامى إلي هدير طائرة تعبر السماء، فأتشنج وأنا أبحث عنها بعينيّ، لكنني لا أتمكن من تمييز شيء عدا ضباب أزرق، حيث لم أعد أستطيع رؤية أية تفاصيل، فأفكر في أنه ربما تكون العاصفة الاستوائية قد انْجَلَتْ، وأن الإمدادات والمؤن في طريقها إلى جزيرة السيدة إليوت، وأخيرًا سيكون بإمكاننا العودة إلى بلدنا.

أتمنى أن يكون ربان هذه الطائرة قد لاحظ النار التي نوقدها، وأن يخبر فريق الإنقاذ الذي سيأتي لنجدتي بهذا المكان. لكني عندما أدلك قدمي التي لم أعد قادرة على رؤية مدى تحسنها يتضح لي أنها لم تعد منتفخة كثيرًا وأن جراحي تلتئم تدريجيًّا، يبدو إن «إنسان» معالج ماهر للغاية ولديه طرقه الخاصة التي تحقق نتائج مذهلة.

أسمعه وهو يجمع أغراضه القليلة الموجودة بالمغارة، فأفهم أنه يستعد لأخذي إلى الغوص، فأتوجه إليه

بالسؤال:

لماذا تظن أنه من المهم جدًّا أن أتعرف على حيوان الطوطم المرتبط بي؟

لأنه سيساعدك في حياتك الجديدة.

حياتي الجديدة؟

يخترق أذنيَّ ضجيج ناجم عن انكسار غصن، وتدحرج حجر من بعده، ثم أشعر بأصابع تقرص أذني، لأصيح: آه!

فيقول إنسان:

لم تريني وأنا قادم.

لا، ولكنني سمعت حركتك.

هذا ما أنت بحاجة إلى تطويره، بوسع جسدك أن يتكيف مع الحياة دونما حاجة إلى عينيك، لذا فبمجرد اتحادك مع حيوان الطوطم الخاص بك، ستصبحين أقوى في مواجهة هذه المحنة، وستتعلمين كيفية جعل حواسك الأخرى تُعَوِّضُ إعاقتك البصرية.

أهز رأسي موافقة على رغم أنني أنوي التوجه إلى مستشفى متخصص في طب العيون، بمجرد عودتي إلى بلدي المتحضر في واقع الأمر، حيث آمل أن يتمكن اختصاصيو العيون من إنقاذ عينيَّ.

يقول إنسان:

لقد حان وقت النزول إلى الشاطئ.

وبينما يحمل أغراضه في طريقنا للخروج من المغارة، يفاجئنا المطر الاستوائي بقطراته الدافئة التي تُعتبر جزءًا لا يتجزأ من طبيعة الحياة هنا، كما صرتُ أعرف منذ جئت إلى جزيرة السيدة إليوت، هنا فحسب لا نحتاج إلى الاحتماء من المطر بِمِظَلّة، لأن الماء الدافئ المنساب على أجسادنا وثيابنا يجف ما إن يعتدل الطقس من جديد.

أسمع خطوات إنسان وهو يسير أمامي، لكن الأشكال الضبابية التي لا أرى سواها لا تسمح لي بتجنب اصطدام رأسي بأوراق الشجر أو ارتطام قدمي بالأغصان الميتة والجذور التي تتمدد فوق التربة، فأتعثر بغصن ميت وأسقط ليساعدني إنسان على النهوض، ويمسك بذراعي من بعدها ليقودني، قائلًا: تعالي معي وأنصتي لنصائحي.

يشلني الخوف من المجهول.

لكنه يضيف:

ادرسي الأرض بالاستعانة بِقَدَمَيْكِ، انتبهي إلى انحرافاتها وتغيرات نباتاتها، اشعري بالكائنات الموجودة حولك باستخدام أذنيك، اكتشفي الروائح، استنشقيها لِتَدُلَّكِ على المكان الذي يوجد فيه نوع محدد من الأشجار أو النباتات، تعلمي من الآن فصاعدًا الرؤية بحواسك الأخرى، لا بحاسة البصر وحسب.

أحاول اتباع إرشاداته.. لكني لا أشعر بطمأنينة حيث أسمع طيورًا تزقزق في الأعلى، مما يشير إلى وجود أشجار عالية لها جذور ضخمة تتمدد فوق التربة فأرفع ساقي كي أتجنب التعثر من جديد. ليقول إنسان: ممتاز، لقد بدأتِ تفهمين.

وبينما يداعب أنفي عطر مثير للحواس، رائحته شبيهة برائحة الشامبو الذي أستعمله، فأستنتج أنني قريبة جدًّا من بستان، ولذا أخفض رأسي كي أبتعد قدر الإمكان عن هذه الرائحة، وحين يلاحظ إنسان يقول لي: لقد تجنبتِ للتو الاصطدام بغصن كان أمامك مباشرة.

هذا التمرين شاق لكنه ليس مستحيلًا، حيث يلزمني فقط أن أتدرب كي أكون متأهبة على الدوام إلى أن تعتاد حواسي على الإيقاع الجديد لحياتي.

يغمرني الاطمئنان رويدًا رويدًا، وأشعر أنني أتحسن تدريجيًّا، مما يجعلني أسرع الخطى، لكن إنسان يجذبني من يدي فجأة فأسأله: ماذا هناك؟

أنت تقفين على حافة هاوية!

نصل إلى الشاطئ بعد مرور نصف ساعة على مغادرتنا لتلك المغارة، والذي آمل سرًّا أن أجد على ضفته كلًّا من جول، ويندل، ليف وفريق الإنقاذ، عساني أتجنب اختبار الطوطم هذا، لكن الضفة كانت مهجورة تمامًا للأسف الشديد.

أرفع عيني صوب الأفق تلقائيًّا لكنني لم أعد أميز المرتفعات التي تحيط بِمَجرى الماء، لقد بدأ القلق على جول يتسرب إلى نفسي، إذ أفكر في أنه ربما لم ينجح في عبور تلك المرتفعات في طريق عودته إلى فندق جزيرة السيدة إليوت.. فأصلي وأتمنى ألا يكون قد تعرض لأي مكروه.

لقد صارت أذناي شبيهتين بجهاز الرادار، متأهبتين لالتقاط أدنى صوت قادم سواء من جهة المحيط أو من جهة البركان، ولا أشك في أن فريق الإنقاذ سيأتي من أجلي، إنها مسألة وقت وحسب..

يتسلق إنسان شجرة جوز الهند العالية بالقرب من ضفة الماء، ويُسْقِطُ ثمرة من جوز الهند بعدما هزها بيديه في قوة، ثم يأخذ منجله ويُحِدُث بها ثقبًا جانبيًّا، قبل أن يمدها إليَّ وعلى وجهه ابتسامة عريضة كما أظن:

اشربي! يجب أن تستعيدي قواك.

أضع شفتيَّ على ثمرة جوز الهند، لأشم رائحة حلوة تحيط بي وأنا آخذ أول رشفة من ماء جوز الهند المنعش واللذيذ للغاية، فيقول لي إنسان:

لا تشربيها بالكامل وإلا ستصابين بِمَغَصٍ شديد في بطنك.

أعمل بنصيحته.. إذ إنني أتذكر سماعي لحديث حول التأثير المُلَيِّنِ لجوز الهند.

يختفي إنسان خلف بستان من الشجيرات التي تعتليها أزهار ذات لون أحمر ناري، ثم يخرج من بينها وهو يسحب قاربًا بدائيًّا. أعجز عن تخيل إمكانية صمود هذا القارب في الماء أمام الأمواج العاتية، ولكن مُضِيفي لا يبدو عليه القلق بهذا الشأن، إذ يسارع إلى تجهيز القارب الذي سيأخذنا في رحلة بحرية، وحين أسأله:

إلى أين سنذهب؟

يهيأ لي أنه يشير بأصبعه إلى المرتفع الذي يفصل مياه البحيرة عن أعالي البحار.

إنسان، عليَّ أن أخبرك..

وعلى رغم أنني خائفة ولا أرغب في إيذاء مشاعره، فإنني أكمل قائلة:

لا رغبة لي في العودة إلى الماء، افهمني.. أنا مرتعبة بعد كل ما حدث لي.. ثم إنني لم أعد قادرة على الرؤية تقريبًا.

فيسألني:

أنت لا ترغبين في المعرفة إذًا؟ لقد قطعتِ مسافة كبيرة جدًّا من أجل المجيء إلى هذا الجزء من كوكب الأرض، حَلَّقْتِ فوق كل القارات وجميع البحار والمحيطات، وأتيتِ إلى هذه الجزيرة وبلغتِ هذا الشاطئ لأن قدرك هو أن تلتقي معي، والآن أنت ترفضين إكمال مسيرك حتى تصلي إلى نهاية طريقك نحو المعرفة؟

لا أجد رَدًّا على كلام إنسان، إذ إنه قد يكون محقًّا، ربما أنني لستُ هنا اليوم بمَحْضِ الصدفة، فقد كانت هذه الرحلة مُقَدَّرَةً لي من البداية، كي أستفيد وأستخلص منها دروسًا وعِبَرًا تساعدني على تغيير نَمَطِ حياتي، والتعايش مع محنة فَقْدِي لِبَصَرِي.

يجلس إنسان داخل قاربه وهو يضع مجدافه الخشبي على ركبتيه. بينما أحس بأن عقلي مضطرب جدًّا بفعل الأفكار المتضاربة التي تدور وتدور بداخله، إضافة إلى خوفي الذي يتصارع مع رغبتي في إدراك وجهة نظر إنسان.. لكني أقرر أخيرًا أن أتبع منقذي وأذهب معه في هذه الرحلة، وأنه لن تمنعني الأخطار المحدقة بي من الاستمتاع بهذه الأرض ذات الطبيعة الغَنَّاءِ والمحيط الهائل، فما الذي بإمكاني أن أخسره بعد كل ما عشته وفقدته على أية حال.

فأقول له وأنا أتشبث بالقارب:

انتظرني!

ثم أصعد على متن القارب ونبدأ إبحارنا..

إن حاسة البصر تسمح للجسد بالتعامل السريع وقت الأزمات، فإذا ألقى أحدهم عليك حجرًا على سبيل المثال فستمد يدك لا إراديًّا لتحمي نفسك، وإذا اعترض طريقك غصن شجرة فسترفع ساقك كي تتخطاه، ودون هذه الحاسة المهمة فإن حركة الأمواج تفاجئني، وأجدني عاجزة عن توقع الاهتزازات من حولي، ومن ثمَّ فلا أستطيع الحفاظ على توازني، مما يجعلنا مُهَدَّدَينِ بانقلاب القارب في أية لحظة.

يتوقف إنسان عن التجديف هنيهة، ويقول:

استرخي، اتركي ذراعيك ترتاحا على جانبيك، ولا تدعي عضلاتك تتشنج وتنفسي بهدوء.

أبذل قصارى جهدي لاتباع نصائحه لأنه يلزمني أن أهدأ في أسرع وقت ممكن، فيضيف:

اشعري بالبحر، بقوته، باختلاجاته، أطلقي العنان لنفسك وحواسك، واتبعي إيقاع المحيط.

لكني أشعر بوهن جسدي وأن قواي الخائرة تجعلني أطفو فوق الماء تبعًا لتموجات المحيط الهادي.

يجب أن يَتَّحِدَ جسدك مع الماء، لستِ بحاجة إلى عينيك ولا يديك، كل ما تحتاجين إليه هو التناغم مع إيقاع المحيط.

ثم يعود إنسان إلى التجديف، بينما أترك جسدي يهتز بفعل الموج.. أنا فخورة بنفسي، بشجاعتي وباكتشافي لقدراتي الجسدية.. وإذا رأتني أمي الآن لن تعرفني وأنا أرفع رأسي في وجه الأمواج العالية دون خوف.

نصل إلى حافة المرتفع حتى نرسو بالقرب من ممر صخري تغطيه حجارة ملساء، وعلى رغم رؤيتي الضبابية فإنني أميز ألوان الماء الصافية والتي تكون عبارة عن مزيج من الأخضر الزمردي، الأزرق السماوي، وصولًا إلى تدرجات قريبة من البنفسجي.

يقودني إنسان نحو فجوة طبيعية تشبه حَمَّامَ سباحة، ثم يقول وهو ينحني أمامها باحترام:

ها هي مقبرة الأرواح، هذه الفجوة عميقة جدًّا، وجزء كبير منها يمر تحت هذا المرتفع، ولهذا فإن جميع الكائنات البحرية تتردد إليها، وبما أنه عليك التعرف على حيوان الطوطم المرتبط بك، فإنك ستلتقين معه هنا حتمًا.

أجيبه معترضة:

ولكنني لا أملك قناع الغوص، وزعانف السباحة وليست بحوزتي قنينة أكسجين أو منشاق، فكيف لي أن أغوص دون المعدات اللازمة لذلك؟

ثقي بالطبيعة.

يبتسم لي قبل أن يشرع في البحث تحت حجر كبير عن قِرْبَةٍ مصنوعة من جلد حيوان ما، يبدو أنه معتاد على هذا المكان الشبيه بالجنة المجهولة، ولهذا يتصرف وكأنه في بيته. حيث يفك رباط القربة ويقطف بعض النباتات، ثم يجمع كمية من الحصى ليضعها بداخل القربة، ثم يضيف قليلًا من الماء قبل أن يغلقها من جديد، ويقول:

علينا أن نترك النباتات منقوعة قليلًا، وفي خلال بضع دقائق ستجدين داخل هذه القربة هواء أكثر نقاء من هواء أسطوانات الأكسجين.

في انتظار تفاعل هذا الخليط، يملأ إنسان كيسًا جلديًّا بالحصى التي يجمعها من الضفة، ويربط الكيس بشريطين ليغلقه، ويضعه على كتفي وكأنه حقيبة ظهر.

هذا الكيس سيسمح لك بالنزول إلى عمق فجوة مقبرة الأرواح، حيث إنه سَيُثْقِلُ جسدك، وعندما تشعرين بأن القربة قد انكمشت ستعلمين أنك استهلكت كل الهواء الذي تحويه. وحينها عليك نزع كيس الحصى من ظهرك فحسب لتصعدي إلى سطح الماء، إن الأمر سهل للغاية.

هل سبق وقمتَ بهذا؟

-هل أنت مجنونة؟ أنا طائر الحسون الذي يعتلي أغصان الأشجار الضخمة ويحيا في الغابة، لذا فمن المستحيل أن أغوص في أعماق البحار.

عندما صرت جاهزة للغوص أخيرًا، حاول إنسان أن يطمئنني قائلا:

لقد تعلمتُ تقنيات غوص أجدادنا هذه من أخي الذي كان غَوَّاصًا بارعًا، حيث كان الطوطم الخاص به هو سرطان البحر، وقد أمضى حياته في قعر البحيرات وهو يبحث في الصخور عن القشريات والكركند ليصطادها.

فأسأله:

لماذا تتحدث عنه بصيغة الماضي؟

ليهز رأسه وترتسم على شفتيه ابتسامة مصطنعة:

أتحدث عنه بصيغة الماضي لأنه ذهب للغوص ذات يوم ليجلب لنا عشاءنا، لكنه لم يصعد مجددًا إلى سطح الماء، فقد ابتلعه المحيط.

يمتلك إنسان موهبة جعل أي حَدَثٍ مهما كان مؤلمًا يبدو كأنه حدث طبيعي، دون أن يُسْبِغَ عليه حزنًا أو جسامة، فبالنسبة إليه ما دام أن الطبيعة الأم هي التي رغبت في حدوث ذلك، ومن ثمَّ فلا يجب علينا أن نغضب أو نعترض، وإنما علينا تقبل الأمر والمضي قدمًا.

يكمل:

أتعلمين؟ إن أخي لا يزال بيننا، فأنا أُحَدِّثُ روحه أحيانًا عندما أقوم بجولة بحرية على متن قاربي، إنه يرافقني بينما أطلب منه أن يساعدني على صيد أكبر عدد ممكن من الأسماك. كأنه مفهوم آخر للعالم، فالمقبرة ليست نهاية الروح البشرية، لأن الحياة تستمر على نَحْوٍ آخر، ويظل التواصل قائمًا بين الأحياء والأموات.

ثم يضيف قائلًا:

عليك أن تذهبي الآن لأنك إذا تركت النباتات منقوعة لمدة طويلة في القربة، فإن الهواء الذي سينبعث منها ستكون له تأثيرات غريبة عليك، أعتقد أنكم في بلدكم تُسَمُّونَ تلك التأثيرات بـ: الغازات المُهَلْوِسَةِ،

ولهذا إذا شَرَعْتِ في الضحك في أعماق الماء عليك أن تصعدي إلى السطح على الفور.

أومئ برأسي وأنا أحاول تركيز تفكيري حول مهمة الغوص. إذ إننا نقف الآن على صخرة ملساء، ينغرس فيها جذع شجرة ضخم تمتد جذوره تحت الماء، وقد تعرضت الشجرة على ما يبدو لصاعقة على ما يبدو لأن جذعها محترق.

هل أنت مستعدة؟ انزلي ببطء على طول هذه الشجرة، واحرصي على تخفيف الضغط المحيط بك كلما تجاوزتِ خمسة فروع من فروعها، وحينما ستصلين إلى أعماق البحيرة، تَحَلَّيْ بالصبر واستمتعي بالعَرْضِ.

آخذ شهيقًا عميقًا، لكن إنسان يوقفني قبل أن أقفز في الماء قائلًا:

لا تنسي أبدًا الاستمتاع بمباهج الحياة، تخلصي مما يَحُولُ بينك وبين الحياة الحقيقية، كالشاشات ومؤثرات الصور، عيشي بمعنى الكلمة وانغمسي في الحياة بكل حواسك.

انتابني إحساس بأن إنسان يودعني، فسرت قشعريرة في جسدي ثم قفزت في الأعماق المجهولة لتلك المياه. ليحيطني عالم من الصمت، بينما تبطئ القربة المملوءة بالأكسجين من سرعة هبوطي إلى الأعماق بالاستعانة بكِيس الحصى، ولذا أضع القربة تحت إبطي، كي يسعني التزود بالأكسجين والتحكم في غوصي في نفس الوقت.

أحترم قاعدة تخفيف الضغط التي شَدَّدَ عليها إنسان في حين أن البحيرة تَنْضَحُ بالأسماك التي تسبح في دوامات داخل الأعماق الخضراء، وعلى رغم أنني لا أرى منها سوى أشكالها المستديرة والملونة، فإنني أحس بها تتبعني كما أن البعض منها يلامس جسدي، لكنها ليست عدوانية، وإنما مجرد كائنات صغيرة فضولية، ثم أنتظر إشارة من إحداها أو دليلًا بوسعه إرشادي إلى حيوان الطوطم المرتبط بي، لكن لا شيء يحدث.

أسمح لكيس الحصى أن يجذبني إلى الأسفل أكثر فأكثر، حيث يصبح النور خافتًا، ثم تظهر أمامي سلحفاة بحرية، والتي تدنو مني فأداعب قوقعتها، حتى أظن أنها تريد مرافقتي حتى نصل معًا إلى أعمق نقطة في البحيرة.

إن وجود السلحفاة بالقرب مني يُشعرني بالأمان، وبأنني لست وحيدة في هذا العالم الغريب عني. وفجأة يلتف رباط كيس الحصى الذي أحمله على ظهري حول أحد فروع الشجرة العملاقة لأصبح عالقة في هذا المكان. فأقاوم

الهلع لأنني لا أرغب في الموت غرقًا ثم أستنشق نَفَسًا عميقًا من هواء قربتي، وبعدها أفك الرباط العالق في الفرع بهدوء وأنا مندهشة من قدرتي على التصرف في المواقف الحرجة.

وبعدها يستغرق نزولي بضع دقائق أخرى تلمس قدماي الرمل الموجود في قعر البحيرة.

لقد نجحت!

هزمت مخاوفي وتفوقت على نفسي في عمق مقبرة الأرواح، وهأنا أنتظر الآن بلا حراك، أنتظر في هدوء الطوطم المجهول الخاص بي، الذي ربما يأتي أو لا، ربما أنني لم أصل في اليوم والوقت المناسب للتعرف عليه.

لقد اختفت السلحفاة التي كانت ترافقني، لأنها تخشى أسماك القرش التي تطوف حولي قادمة من كل الجهات.. فأبقى ملتصقة بالرمل والخوف يمزق أحشائي، إذ يتعين عليّ ألا أتحرك كي لا تهاجمني.

أعتقد أن ثلث قربة الهواء ما زال ممتلئًا مما سيتيح لي البقاء في الأعماق لبضع دقائق أخرى. فأجثو على ركبتيَّ وأنا أصلي كي لا تلاحظ أسماك القرش وجودي. بينما أتعرف على الشكل المميز لسمكة قرش «رأس المطرقة»، كما أميز الخطوط الداكنة التي تُزَيِّنُ بطن «قرش النمر»، وفجأة، أتجمد في مكاني.

إنه هنا، بالقرب مني، يمر بمحاذاة جانبي الأيسر، إنه قريب مني جدًّا إلى درجة أنني أرى عينه المخيفة.

إنه قرش أبيض، حجمه ضخم للغاية، ويبدو كَوَحش دموي بفمه المفتوح عن آخره وفكه الهائل. يدور حولي وأنا لقمة سائغة أمام هذا الصياد الفتّاك.

فأسأل نفسي:

ماذا أفعل هنا في أعماق هذه المقبرة؟ ولماذا امتثلتُ لِهَلَاوِسِ عجوز مجنون؟

وفجأة يهاجمني القرش من الخلف ليعض الكيس الذي أحمله في ظهري، وترتطم أنيابه بالحصى التي لولاها لاستطاع أن يلتهمني دفعة واحدة. ويهزني هذا الوحش في كل الاتجاهات قبل أن يَدَعَنِي بِسَلَام. لكن الكيس قد تمزق وتناثرت منه الحصى، مما يُشعرني بالخفة حتى يحملني تيار ساخن، فأندفع بقوة صوب سطح الماء حيث لم أعد أتحكم في أي شيء. فأضحك من هذا

الموقف بعدما استنشقت نفسًا جديدًا من الأكسجين، أضحك بطريقة هستيرية، خارجة عن السيطرة. أتذكر ما قاله لي إنسان حول التأثيرات المُهَلْوِسَةِ المحتملة للهواء الذي تحتوي عليه قربتي.. وأدرك أنه يتحتم عليَّ أن أصعد إلى سطح البحيرة قبل أن أفقد صوابي.

وحين شعر بالقرش الأبيض وهو يطاردني، إذ ينبهني جسدي إلى الخطر الدَاهِمِ المحدق بي، أستدير بشكل غريزي كي أواجه هذا القرش، أرى فكَه يستعد لافتراسي، فأضحك بهستيرية أكبر دون أن أستطيع منع نفسي من ذلك.

لكني أعلم أنه لن يتركني أفلت من قبضته لأنني فريسته المثالية، وأن كل ما سيقوم به هو جعل قواي تَخُورُ قبل أن يُجْهِزَ عليَّ. وفي تلك الأثناء أدرك أنه من المستحيل تقدير المسافة التي تفصلني عن سطح البحيرة بعينيَّ المنهكتين. بينما يدفعني التيار أبعد فأبعد عن الشجرة الميتة التي لم أعد ألمحها، ولن يكون باستطاعة صديقي إنسان إنقاذي.

يدور القرش حولي.. فأضحك..

أحاول أن أبعده عني.. فأرتعد..

وفجأة، يظهر سرب من أسماك الراي مانتا ذات الأجنحة والزعانف السوداء الكبيرة، والتي يصل عددها إلى العشرات أو ربما المئات. حيث يحيط بي هذا السرب مشكلًا دوامة حولي كي يحميني من القرش الأبيض. بينما تغطيني سمكة «مانتا راي» ضخمة يبلغ طولها على الأقل سبعة أمتار بأجنحتها، أعرف في هذه اللحظة أنها حيوان الطوطم المتصل بي.. إذ يُخَيَّلُ إليَّ أنني كجنين في رحم أمه.. فقد صرنا مُتَّحِدَيْنِ أنا وطوطمي.

تغمرني بهجة مختلفة عن البهجة المصطنعة الذي تسببتْ لي فيه الغازات المهلوسة، بهجة حقيقية تُشعرني بالاكتفاء. ولا أعرف إذا ما كانت رؤيتي تخدعني، لكنني أرى جلد سمكة المانتا راي يتخذ ألوان قوس قزح. إنها سمكة رائعة، وجمالها يبعث على الراحة النفسية، حيث أنسى في حضورها كل متاعبي، بل أنسى حتى استنشاق الهواء من قربتي، ومن ثم يحملني حيوان الطوطم الخاص بي بِرِقَّةٍ على أجنحته، دون أن أعلم إلى أين يأخذني.

في حين يرافقنا سرب أسماك المانتا راي حتى تبتعد عنا الوحوش البحرية المفترسة أخيرًا.

يا لها من لحظة سحرية تجعلني أضحك ملء قلبي لشعوري بتلك السعادة العارمة!

كلارا هل أنت بخير؟

إنها تعاني من الحمى.

يجب أن نقوم بحَقنها بسرعة!

هل تسمعينني؟ أنا جول، أنا إلى جانبك، لقد وعدتكِ بأن أعود، أجيبيني أرجوك يا كلارا!

أسمع أصواتًا خافتة، بعيدة حيث أحس بِجَلَبَةٍ من حولي لكنني عاجزة عن معرفة المكان الذي أوجد به. وحين تلمس يداي الرمل أدرك أنني على الشاطئ في الأغلب. فلا بد أن المحيط قد لَفَظَنِي دون رغبة في ابتلاعي كما فعل بأخِ صديقي إنسان.

إن قدري هو أن أحيا، ولهذا السبب قد أنقذتني سمكة المانتا راي.

أفتح عينيّ لكنني لا ألمح أي شعاع نور وأسمع أحدهم يقول: إنها تستعيد وعيها.

فأرمش بعيني، لكني لا أرى شيئًا.

تحدثي معي يا كلارا، قولي أي شيء!

أتساءل:

أين إنسان؟

المعذرة؟

فأجيب موضحة:

أحد السكان الأصليين، الرجل الذي كان يرافقني.

يرد جول وهو يمسك بيدي:

ويندل هنا معنا، لقد سَمَحَ لنا بالمجيء إلى أرض أجداده المقدسة كي ننقذك.

فأهز رأسي بعصبية لأنهم لا يفهمونني، ثم أقول: لا، أنا أقصد إنسان، الرجل الذي يسكن هنا!

يسحب جول يده من يدي ويتراجع إلى الخلف ليفسح المجال لويندل كي يجلس بالقرب مني، قائلًا: ويندل هو آخر السكان الأصليين، أما الآخرون فقد ماتوا أو هاجروا ولم يعد هناك أي شخص يقيم بهذا الجزء من الجزيرة عدا أرواح أسلافي.

أنت لا تعرف إنسان؟ إنه يسكن في المغارة التي توجد بالغابة.

هل تقصدين مغارة الحسون؟ لم يسبق أن سكنها أي أحد، ربما كانت كذلك منذ زمن بعيد.. أما الآن فإنها مُسْتَعْمَرَةٌ للطيور.

يقول ليف:

إنها تهذي! علينا الانتظار حتى تتحسن بعدما يعطي الدواء مفعوله.

أريد أن أعترض على كلام ليف وويندل لكنهم يحملونني على نقالة بسرعة، بعدما قَدِمَ فريق الإنقاذ على متن زورق آلي. لكني أصيح بفزع: لم أعد أرى أي شيء، لا شيء على الإطلاق..

يقترب جول مني ويصعد ليجلس بجانبي في الزورق، ثم يقول: لا تقلقي، إن حرارتك مرتفعة بسبب ما تعرضتْ له قدمك، ولكنك ستستعيدين بصرك ما إن تتماثلي للشفاء.

أهز رأسي نافية لأنني أعرف أن ما يقوله شبه مستحيل، لأن إنسان سبق وأخبرني بأن عيني تحتضران، كما أن آخر شيء رأيته كان سمكة الراي مانتا المرتبطة بي، هذه السمكة الضخمة ذاتُ انعكاسات قوس قزح، وكأنها حينما حملتني على أجنحتها أخذت قدرتي على إبصار الألوان، ولم أعد أرى شيئًا سوى السواد.

يعلق جول ونحن نهتز بفعل الأمواج:

هل لاحظتم أن قدمها ما زالت متورمة بعض الشيء، ولكن كل الجراح قد اختفت منها!

فأشعر بأصابع خشنة تلمس قدمي، إنه ويندل من يفحصها بعناية، وهو يقول: أجل، هذا غريب! إن قدمها في طور الشفاء.. فالحرارة تبطل مفعول السم، ومن الممكن أن بقاء كلارا لوقت طويل تحت الشمس كان مفيدًا لها.

أهمس لهم:

وإنما أنقذني نَصْلُ المنجل الساخن ودُودُ العَلَقِ.

يُمرر جول يده على شعري، بينما لا يكترث الآخرون بما أقوله، حيث يظنون أنني أهذي..

بينما لا أملك القوة الكافية لأقنعهم بصحة ما أقول عما عشتهُ في أثناء غيابهم..

أتساءل لماذا لم يأت إنسان لاستقبالهم إذ ربما يكون مختبئًا في الغابة بعدما أنهى مهمته، فقد عالجني وعلمني كيف أتقن استخدام حواسي، قبل أن يجعلني أتعرف على حيوان الطوطم الخاص بي، وبفضل ما علمني إياه إنسان اكتشفتُ قوتي الداخلية، وعرفتُ الراحة النفسية بالرغم من أنني فقدتُ بصري، ولهذا فإني لا أخشى مواجهة عالمي الجديد.

أترك جسدي يتبع إيقاع الأمواج كما علمني إنسان على متن قاربه البدائي.

بينما أستنشق هواء البحر وأشعر بأن عقلي يعكس لي صورة الواقع ويَعْرِضُ أمامي هذا المنظر الطبيعي الساحر، أسمع النوارس التي تتبع الزورق الآلي، حيث يغوص البعض منها قليلًا ليصطاد الأسماك الصغيرة.. فأفكر في أنني أرى عبر أذنيَّ الآن، أنفي، ومَسَامِّ جلدي، وأن كل حاسة لها طريقتها الخاصة في الإبصار، بل إن جسدي بكامله صار شبيهًا بعَين مُرَكَّزَةٍ على العالم.

يملؤني الامتنان تجاه هذه الطبيعة السخية، التي تزودني بالأسلحة اللازمة للمقاومة والعيش. بينما يجعلني شعوري بالاكتمال أبتسم في هَناء وراحة بال.. ويغمر هواء البحر القوي ورَذَاذُ الأمواج بشرتي إلى درجة يقشعر لها جسدي.

فأنا أعلم أن سمكة المانتا راي موجودة هنا مباشرة تحت قعر الزورق، إنها تحوم بأجنحتها العملاقة حول التيارات الدافئة لترافقني وتدعمني. بينما تستقر يدي في يد جول الذي يدنو مني ليسمع ما أود قوله له، حيث أتمتم: انظر إلى سمكة المانتا راي ذات ألوان قوس قزح!

وأتمنى بيني وبين نفسي أن يتمكن من الاستمتاع برؤية سمكة المانتا راي كما استمتعت أنا لأنني أرغب في أن أشاركه هذه اللحظة السعيدة.. لكنه يكتفي بمداعبة جبيني بِرِقَّةٍ قائلًا: نامي، غدًا ستصبحين على ما يرام!

* * *

تدور في ذهني أفكار وتساؤلات محيرة.. حيث أتساءل إذا ما كانت زيارتي للأرض المقدسة للسكان الأصليين لأستراليا حقيقة أم هلوسة وهل إنسان مجرد شخصية اخترعها عقلي المتعب مثلما اخترع سمكة المانتا راي! لكن كل هذا يبدو لي واقعيًّا جدًّا، ولعل خير دليل على حقيقة ما عشته هو معجزة شفاء قدمي، لكن لا أحد هنا يأخذ حكايتي على محمل الجِدِّ للأسف.

كنت قد غفوت وأنا أضغط على يد جول عندما كنت على متن الزورق الآلي الذي أعادني إلى الفندق، وحينما استيقظت وجدت نفسي في البيت الخشبي لإلزا التي ذهبت لتُقيم مع إيناس كي تتركني أَنْعَم بالراحة والهدوء.

لقد نمت أربع وعشرين ساعة قبل أن أستعيد وعيي، وأشعر الآن أنني أفضل حالًا.. بينما يجلب لي كلٌّ من أنطوان، ماري، إلزا، إيناس وجول وجبة فطور فخمة كي أسترجع قواي، أتحسس الصحون باحثة عن قطع الفواكه التي ترشدني إليها روائحها الشهية، فيسألني جول بقلق: هل ما زلت غير قادرة على الرؤية؟

أجيبه بمرارة:

لا أرى سوى الظلام!

أحس بانزعاج أصدقائي فأقول لهم:

لا تقلقوا، ربما أن هذا نتيجة الحادث الذي تعرضتُ له، فما إن يَتَبَدَّدَ سم سمكة الحجر من جسدي وسأستعيد رؤيتي ولو بشكل جزئي.

توضح لي ماري قائلة:

إن الطبيب الأسترالي الذي تواصلنا معه عبر اللاسلكي يقول بأنك تحتاجين يومين إضافيين من الراحة، قبل أن تستطيعي التوجه إلى القارة عبر الطائرة الخفيفة.

فيضيف أنطوان:

أظن أنك لست أول من يتعرض لهذا الضرر بعد التسمم، هناك العديد من اختصاصيي طب العيون الذين يملكون القدرة على علاجك.

أقول له:

أتمنى ذلك..

ثم تمسك إلزا بيدي لتضع قطعة من فاكهة الأناناس داخل كفي، وتقول: عمومًا لقد أضحكتنا حكايتك عن العجوز «إنسان»، وكذا قصة غوصك بالاستعانة بمُعدات بدائية غريبة في أعماق البحيرة؛ لتزوري فجوة مقبرة الأرواح وتلتقي بسمكة الراي مانتا ذات ألوان قوس قزح، والتي عرفت أنها هي حيوان الطوطم الخاص بك المكلف بحمايتك.

لا أعرف بما أجيبها، إذ إنني لا أملك أي دليل على صحة أقوالي، ومع ذلك فإنه لم يسبق لي أن شعرت بكوني على قيد الحياة مثلما شعرت في تلك اللحظات السحرية، فكيف لي أن أنسى تعليمات إنسان حول أهمية التواصل مع الطبيعة، وكيف كنت سأختلق قصة دود العلق الذي امتص الدم الفاسد من قدمي المصابة.

فما زلت أراني وأنا ألمس قوقعة السلحفاة البحرية التي رافقتني إلى فجوة مقبرة الأرواح، وما زال جسدي يقشعر عندما أتذكر ذلك القرش الأبيض الذي حاول افتراسي.. فلا أظن أبدًا أن مخيلتي قد اختلقتْ كل هذه الأحداث..

يُغَيِّرُ أنطوان الموضوع بقوله:

من يود الذهاب للغوص للمرة الأخيرة؟ أعتقد أن هناك سِرْبًا من أسماك الراي مانتا قد وصل إلى البحيرة.

تضيف ماري:

إنها فرصتنا الأخيرة لرؤية هذه الأسماك العجيبة.

يَسُودُ الصمت الذي يسهل عليَّ تفسير سببه، فأقول: هيا، لا تترددوا في الذهاب، أما أنا فسأمضي معظم الوقت في الفراش كما تعلمون، استمتعوا بما تبقى من هذه الرحلة إلى أقصى حد، ثم إنني كما أخبرتكم قد سبق لي أن قمت بالسباحة مع أسماك الراي مانتا على الجانب الآخر من الجزيرة.

يقهقه أصدقائي بعد سماعهم لقولي هذا، إذ يعتقدون أنه مزحة. بينما أغبطهم في داخلي لأنهم يستطيعون مشاهدة هذا العرض المدهش.

ثم يسألني جول بِضيقٍ:

هل أنت متأكدة من أن ذهابنا لا يزعجك؟

أسرع بالذهاب، فعلى العكس سأسعد كثيرًا عندما تعود وتحكي لي ما رأيتَهُ.

أخمن أنه يبتسم لي شاكرًا.

فتقول إيناس:

سأبقى هنا إذا لم يكن لديكم مانع يا أصدقائي، لأنني متوعكة قليلًا هذا الصباح ولا أرغب في الغوص.

لا يلح الآخرون عليها للذهاب معهم، ثم يغادرون تِبَاعًا ليجهزوا أنفسهم للغوص.. فأنهي وجبة فطوري رفقة إيناس التي تُبْدِي سرورها بسبب هذه الرحلة المذهلة، وتشكرني على إتاحة الفرصة لها للمجيء معنا إلى هذه الجزيرة الخلابة، ثم تسألني: هل ترغبين في الذهاب للنزهة معي؟ من الممكن أن يجعلك استنشاق الهواء النقي تتحسنين..

ليست فكرة سيئة، إن قدمي لم تعد تؤلمني والمشي سيكون مفيدًا لي.

نستعد للذهاب أنا وإيناس، ونغادر البيت الخشبي وهي تمسك بيدي حتى نبلغ الشاطئ، ثم تقترح عليَّ الذهاب إلى محيط المنارة عبر السير في طريق مختصر، والذي هو في الواقع منحدر ممتلئ بالأحجار الكبيرة، فأقول لإيناس: هل باستطاعتك أن تقطعي قطعة خيزران من أجلي كي أتكئ عليها كَعَصا؟

بالطبع عزيزتي!

أسمعها وهي تبحث بين الشجيرات وتكسر بعض الفروع إلى أن تعثر لي على عصايَ المنشودة، فأقول لها وأنا آخذ العصا من يدها: إنها مثالية وتناسب طولي، فأنا أرغب في السير دون مساعدتك، لأنه إذا كان قدري هو أن أصبح عمياء، فيلزمني أن أعتاد على إعاقتي من اليوم، أتمنى أن تفهميني يا صديقتي العزيزة.

أنت محقة تمامًا يا كلارا.

أود فقط أن ترشديني بصوتك وتشيري إلى أية عوائق من المحتمل أن تعترض طريقي.

لا تقلقي، سأكون بمنزلة عينيك..

أمتنع عن إخبارها بتَعاليم إنسان، هذا الرجل الذي علمني كيفية الرؤية بطريقة مختلفة.. وآمل أن أدرب حواسي الأخرى لِتُعَوِّضَ شيئًا فشيئًا حاسة البصر التي فقدتها.

تتقدمني إيناس، بينما أسمع خُطَاهَا على الطريق وأستشعر أنها ترفع قدمها لتتخطى جذر شجرة عملاقة، ثم تقول: حذاري! هناك جذر يعترض طريقك.

فأبتسم لأنني أدركت الأمر قبل تحذيرها لي، وأفكر في أنه عما قريب لن أكون بحاجة لأي شخص ليقودني.. أسمع طنين النحل فأفكر أنه لابد من وجود سرب من هذه الحشرات يحط على الأغصان العالية لإحدى الأشجار.

أسمع إيناس تقول محذرة:

كلارا، ثمة منعطف على اليمين.

أتبع إرشاداتها بالكامل، حتى أشعر تقريبًا بكل شيء حولي: المحيط بأمواجه المتلاطمة التي تصطدم بالصخور، والطيور التي تحلق في السماء وهي باسطة أجنحتها أمام الرياح البحرية، وأستمتع بإعادة تشكيل ورسم هذه المناظر الطبيعية في مخيلتي بالاستعانة بالأصوات والروائح.

انتبهي يا كلارا، هناك غصن فوق رأسك مباشرة!

لم أستشعر وجود هذا الغصن، عليَّ أن أعترف بأنني غير قادرة بعد على إدراك كل الأخطار التي تحيط بي، وعلى رغم هذا فأنا أبلي بلاءً حسنًا، إلى درجة أنني أخمن الاتجاهات الرئيسية..

نحن الآن نسير على ممر يقع فوق الصخور، والهواء المنعش للمحيط يداعب وجهي، ويجعلني أسمع حفيف أوراق الأشجار القريبة، أنا مستمتعة بهذه النزهة التي اسْتَنْفَرَتْ حواسي إلى درجة أنني أنتبه إلى صوت خفقان أجنحة الفراشات.

أتذكر حينما كنت أمشي في شوارع مدينتي دون أن أنتبه للعابرين الآخرين، كوني أنظر إلى شاشة هاتفي طوال الوقت.. إن هذه الأيام القليلة غَيَّرَتْنِي، وفتحتْ أمامي أبواب عالم جديد، ألا وهو عالم الواقع.

يختفي صوت إيناس هنيهة، ولا أعود أسمع وقع خطواتها. فأتقدم خطوة على سطح الأرض الحجرية، قبل أن أخطو خطوة ثانية بحَذر. ثم تخترق سمكة المانتا راي عتمة عيني فجأة لتتجسد أمامي بألوانها البراقة وسط الظلام الذي يحيط بي، فأستعيد قدرتي على رؤية ألوان الطيف في لحظة عابرة.. تجعلني أدرك أن حيوان الطوطم يحذرني من خطر يتربص بي، أو من حادث ما. ومن خلال الإنصات لصوت الأمواج والشعور بالأرض التي تنحدر أكثر فأكثر تحت قدميَّ أعرف أنني أقف على حافّةِ هاوية.

لكن إيناس لم تحذرني!

فأستدير.. لكنني أعجز عن تحديد مكان وجودها على رغم أنها هنا، فأنا أعلم ذلك لأنني أشم عطرها المكون من مزيج الفانيليا وجوز الهند والذي ينتشر في الهواء، إنها تراقبني في صمت..

فأقول لها:

إيناس! أنت الشخص الذي يحقد عليَّ إذًا!

تمتنع إيناس عن الإجابة عليَّ فأعتقد أنها ترغب في مضاعفة قلقي، وأنها تريد رؤيتي مذعورة وضائعة على حافة هذا الجُرْفِ، فأتساءل هل لا تزال هنا أم لا كما أواصل الحديث لِأهَدِّئَ من رَوْعِي، وأملأ الفراغ الذي يُخَلِّفُهُ هذا الصمت المرعب:

ما الذي تريدينه مني؟ هل ترغبين في موتي؟ أنا وأنت نخوض معركة غير متكافئة، لأنه بوسعك أن تقومي بدفعي كي أسقط من هذا المرتفع، في حين أنني عاجزة عن الدفاع عن نفسي، ولكن امنحيني تفسيرًا لما تفعلينه بي على الأقل قبل أن تنفذي حُكْمَكِ عليَّ.

حتى تجيب أخيرًا:

تذكري الأذى الذي تسببتِ به لبعض الأشخاص، وستحصلين على الإجابة التي تبحثين عنها.

أُقَدِّرُ أن إيناس تبعد عني بمسافة متر أو اثنين، ولهذا فإنه بإمكانها أن تفعل بي ما تشاء، كأن تندفع صوبي وتدفعني لأسقط في أعماق المحيط.

لكني لا أفهم ما هو الشيء الذي ارتكبتُهُ والذي يجعلها تحقد عليَّ إلى هذه الدرجة.. ليست لديَّ أدنى فكرة..

فأقول:

أنا مستعدة لمناقشة هذا الأمر معك، لكن ينبغي لك أن تساعديني على تذكر ما تسببت به، أقسم لك بأنني لا أعرف ما هي مشكلتك معي.

هذا بالضبط ما ألومك عليه: أنك لا تأخذين بعواقب أفعالك بعين الاعتبار..

تشعرني برودة صوتها بالقلق أكثر.. وأفكر أنه يتعين عليَّ طرح عدة أسئلة كي أكسب الوقت، فمن الممكن أن أكون محظوظة وينقذني سائح عابر من انتقامها.

أنا لا أستوعب إصرارك على إيذائي، صارحيني هل أنت السبب في كل المتاعب التي تعرضتُ لها؟

أخمن أنها تبتسم فخرًا بمُخَطَّطِهَا الشيطاني، وهي تقول:

أعترف بأنني جعلتك تعيشين أوقاتًا عصيبة.

هل أنت من وضعت العنكبوت في سريري؟

أجل، تمامًا مثلما قطعتُ هوائي الشبكة وسلك الإنترنت المثبتين على قمة المنارة.

لا تقولي إن انزلاقة قدميك في أثناء صعودك إلى فوهة البركان، والانهيار الصخري الذي كاد يُودِي بحياتي كان متعَمَدًا!

بالتأكيد كان متعمدًا.

وماذا عن إضرام النار في بيتي الخشبي؟

لا، هذا الحريق لم يكن متعمدًا، لقد تسللتُ إلى غرفتك لأخفي بداخلها القارورة التي كانت إلزا تضع فيها بعض المواد المخدرة، وقد فعلت هذا بهدف إثارة المشكلات بينك وبين أصدقائك، ولأنني كنت على عجلة من أمري كي لا تنتبه إلزا لغيابي، أوقعتُ شمعة كنتِ قد تركتها مشتعلة في غرفتك، فانتشر اللهب بسرعة ولم أتمكن من السيطرة عليه.

ما الذي فعلتُهُ لأثير كل هذا الغضب بداخلك؟ أنا لم أتسبب في مقتل أي شخص على حد علمي!

لقد أقدمتِ على فِعْلٍ مماثل تقريبًا!

حديث إيناس يشبه ألغازًا يجب عليَّ أن أحلها، فأقول:

ولكن إذا لم تفسري لي ما فعلته لن يكون لانتقامك أي معنى.

تجيبني:

هل تتذكرين «ليز بيليني»؟ وسخريتك منها واستهزاءك بها على الإنترنت بطريقة مهينة؟

يفكر عقلي بأقصى سرعة، فقد سبق لي أن سمعت هذا الاسم، إلا أنني لا أستطيع تذكر صاحبته، لا بد من أن ليز بيليني كانت موضع سخرية مني فعلًا،

لأنه كان يتحتم عليَّ في أثناء بداياتي كمؤثرة على وسائل التواصل الاجتماعي أن أفعل أشياء تميزني عن المدونين الآخرين، وقد اخترتُ أن أضمن شهرة سريعة، عن طريق انتقاداتي وأحكامي القاسية حول طريقة بعض الناس في التصرف، أو السخرية من أزيائهم وكيفية عيشهم.

أنصتي إليَّ يا إيناس، أنا لا أتذكر من تكون هذه الفتاة، ولكنني إذا تسببتُ لها في ضرر ما فإنني أود الاعتذار إليك.

هل تظنين أن اعتذاراتك المتأخرة ستجعلها تستعيد قدرتها على المشي ومغادرة كرسيها المتحرك؟

تتدفق ذكرياتي دفعة واحدة.. لقد كانت ليز بيليني تلميذة في الثانوية، لها بشرة شاحبة وترتدي دائمًا لباسًا أسود غريبًا على الطريقة القُوطِيَةِ، كنت قد التقطت لها صورًا وأنا أهُمُّ بمغادرة أحد مطاعم الوجبات السريعة، إذ كانت تلبس رداءً جلديًّا واسعًا وداكنًا، وتنتعل حذاءً شتويًّا كبيرًا وبشعًا للغاية، كما تضع مكياجًا يجعلها تبدو كَمُهَرِّج. وبعدها نشرتُ هذه الصور مع مقال لم أهاجمها فيه بصورة شخصية لكنني كتبتُهُ انتقادًا في الثقافة القوطي[12] التي أراها ثقافة سخيفة وتتجاوز الحدود، حيث لم أذكر اسم ليز إطلاقًا، ولكن كان من السهل بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعرفونها أن يتعرفوا عليها في الصور التي أرفقتُهَا بمَقالي.

تتابع إيناس:

عندما انتبهنا إلى غياب ليز في ذلك اليوم، كان حاسوبها مفتوحًا على مقالك، لنُدرك بعد لحظات أنها قفزت من نافذة غرفتها بالطابق الرابع لتسقط على الأرض غارقة في دمائها.

ومن تكون ليز بالنسبة إليك؟

أنا أختها غير الشقيقة، نحن من أم واحدة ومن أبوين مختلفين.

إذًا لم تتعرض أختك لحادث سير كما أخبرتني!

كلا، لم يكن ما أخبرتك به صحيحًا.

أعي الآن لماذا لم أتمكن من الربط بين اسمي «إيناس بونو» و«ليز بيليني»، لأنهما لا تحملان نفس الاسم العائلي ببساطة.

* * *

ثم تواصل حديثها:

أنا من صرت أهتم بتغيير ثياب أختي ومساعدتها على قضاء حاجتها، أنا من أطعمها الحساء الذي لا تستطيع تناول غيره في كل وجباتها، وأنا التي أقوم بدَفْعِ كرسيها المتحرك لآخذها في نزهة بالحديقة حيث تقبع بلا حراك محدقة في الفراغ بفم مفتوح يسيل منه اللعاب. أنا من تحَطَّم أملها في حضور حفل زفاف أختها الوحيدة وحمل أطفالها بين ذراعيها.. لم تعد أختي الآن سوى حُطَامٍ!

أسترجع ما حدث حينها، حيث ألقتْ ليز بيليني بنفسها من النافذة إثر إصابتها بانهيار عصبي، وادَّعَتْ أسرتها أن مقالي هو السبب في محاولتها الانتحار، وبناءً على ذلك قاموا بمُقاضاتي، ولأنه لم يكن بإمكان أمي أن تدافع عني بسبب صلة القرابة فقد طلبت من أحد زملائها تولي قضيتي، إذ قام هذا المحامي بتكليف محقق خاص بالتحري عن ماضي ليز، حتى اكتشف أنها كانت فتاة متمردة طُرِدَتْ من المدرسة الإعدادية بعد إضرامها النار في الساحة الداخلية للمؤسسة في خلال حركة احتجاجية، وبعدها طردتْ من المدرسة الثانوية بسبب أفعال خادشة للحياء، كما سَلَّطَ المحقق الضوء على مواعيد ليز الأسبوعية مع اختصاصي نفسي، وحصل على شهادة من خبير نفسي تقضي بأن ليز تعاني من مرض نفسي صعب هو الاضطراب ثنائي القُطب، ومن شأنه أن يدفعها إلى إنهاء حياتها.

ربما كان مقالي هو القطرة التي أفاضت الكأس، ربما تسبب في إقدامها على الانتحار، ولكن لا شيء يثبت ذلك في الواقع، فعلى أية حال لم يكن مقالي هو السبب الرئيسي وراء مرضها النفسي ولهذا لم يستجب القاضي لمَطالب عائلة ليز بيليني بالحصول على تعويض، ولم يقم بإدانتي، بل إنني لم أتابع الأمر حتى لأنه لم يتم استدعائي للمثول أمام المحكمة وإنما تكفل المحامي بكل الإجراءات.

أقول لإيناس:

أنا لن أناقش معك المحاكمة ولا قرار القاضي...

فتقاطعني قائلة:

أمك محامية مشهورة، ووالدك رجل فاحش الثراء، لقد كانت المحاكمة صُورِية فقط.

كلا يا إيناس، إن والديَّ لا يملكان هذا النفوذ، دعيني أتكلم رجاء ويمكنك بعد ذلك أن تفعلي بي ما تشائين، لأنني لا املك أية وسيلة للدفاع عن نفسي.

أتمنى في داخلي أن يمر أحدهم كي ينقذني من هذا الفخ الذي نصبته لي إيناس، فأنا لا أعرف إلى أي مدى يمكنها أن تؤذيني، حيث إن صمتها وتركها لي أتقدم نحو الهاوية ينذران بالأسوأ.

أضيف قائلة:

كيف لنا أن نُقَيِّمَ التأثير الفعلي لمقالي على ليز ودوره في محاولتها الانتحار؟ هل قطرة ماء واحدة كفيلة بإفاضة كأس ممتلئة عن آخرها؟

إنني أمنعك من التحدث عن أختي بالسوء!

وعندما أحس بأن إيناس فقدتْ أعصابها مما يجعلني أرتجف خوفًا، فأشرح لها:

أود فقط أن أقول لك إن ليز لم تكتب لكم رسالة تشرح فيها دوافعها للانتحار، وإنما تركتكم تائهين وسط فرضيات كثيرة منها فرضية أن تنمري هو ما جعلها تحاول إنهاء حياتها، على رغم أنني ما زلت أعاني من آثار هذه الذكرى المؤلمة، فإن علمي أنه من الممكن أن أكون مسؤولة ولو جزئيًّا عن إصابة أحدهم بإعاقة حركية، هو بمنزلة جرح لن يندمل أبدًا، إن هذا الشعور شبيه بإدانة دائمة دون إمكانية الحصول على عَفْو، إنني أشعر بأغلال تقيدني للأبد، أغلال عليَّ أن أواصل العيش بها مدى الحياة.. فأنا لم أتذكر أختك فور أن أخبرتيني باسمها لكن اعلمي أن ما حدث سيظل محفورًا في ذاكرتي، وسيجعلني أضع حدًّا لتصرفاتي الطائشة، وأتعلم ألا أتجاوز حدودي أبدًا.

أتكلم بلا توقف دون أن أتمكن من رؤية وجه إيناس ومعرفة مدى تفاعلها مع كلماتي، ترى هل ستقنعها مبرراتي؟ لكن يستحيل أن أعرف هذا، فأتابع:

لا يمكنني أن أعود بالزمن إلى الوراء، ولا أن أنجح في جعل ليز تشفى، وهذا يحزنني، لكن الشيء الوحيد الذي بمقدوري فعله والذي يبدو لك أمرًا بسيطًا أو سهلًا للغاية، هو أن أطلب منك الصَّفْحَ عني، ربما ما أقوله يشبه حلمًا مثاليًّا لكنني أتمنى أن نفترق بِسَلام.

تجيبني إيناس ساخرة:

من السهل عليك قول ذلك لأنك لست من فقدت أختها.

أنا لم أكن على صلة شخصية ب»ليز»، لكنني أعتقد أنها لن ترغب في أن تصيري مجرمة، لا بد من أنه كانت لديها أحلام مختلفة حول مستقبلك.

ألاحظ أن إيناس تسترجع هدوءها ويصبح صوتها رقيقًا:

كانت ليز تقول إنني عبقرية، وتتخيل أنني سأكون طبيبة جَرَّاحَة في المستقبل.

لماذا لا تحققين لها هذه الأمنية إذًا إكرامًا لذكرى الأيام الجميلة التي جمعتكما؟ انظري إليَّ، لقد صرتُ عاجزة عن الرؤية، ألا تعتقدين أن هذا عقاب كافٍ لي على ما اقترفتُهُ؟ تخيلي أن تعيشي ما تبقى من حياتك في الظلام، بعد أن تكوني قد تعودت منذ نعومة أظفارك على رؤية النور والألوان، وألا تعودي قادرة على الاستمتاع بالمناظر الطبيعية أو التعرف على وجوه أحبائك.. أعتقد أن عقوبتي مُسَاوِيَةٌ لِجُرْمِي.

لقد عزفتُ على وترها الحساس حيث أسمعها تضرب الأرض بقدميها، إنها لم تعد تدري ماذا تفعل، فأردف قائلة:

إن ما عشتُهُ في الأيام الأخيرة قد حَوَّلَنِي إلى إنسانة مختلفة عن تلك التي تكرهينها: تلك الفتاة المتنمرة التي تسببت في مأساة أختك وأسرتك بكاملها، لقد أدركتُ أنني كنت أحيا في العالم الافتراضي التافه، حيث يلزمك كي تنجحي أن تنتقدي وتسخري من الآخرين بلا رحمة أو شفقة، لكنني الآن فهمتُ جيدًا أنه لا أهمية للملابس التي يرتديها الناس، ولا تسريحات شعرهم أو نوعية مستحضرات التجميل التي يستعملونها، إذ عندما ينطفئ نور عينيك لا تعود هناك أهمية سوى للجمال الروحي.

أسمع خطواتها وهي تستدير عائدة إلى الفندق بينما تتركني هنا وحيدة، وعلى رغم أنها تراجعتْ عن تنفيذ مخططها الإجرامي فإنني لا أريد أن يتوقف حديثنا عند هذا الحد، ولذا أضرب الأرض بعَصايَ وأتجه نحوها قائلة:

انتظريني!

أتعجل في اللحاق بها فأعجز عن تفادي اصطدام وجهي بالغصن الذي سبق وحذرتني منه في أثناء مجيئنا إلى هذا المكان، وأسقط أرضًا لأخدش كفي، فتمسكني إيناس من ذراعي كي تساعدني على النهوض وهي تقول:

هيا تعالي معي.

أبتسم لها بينما تغمرني السعادة في هذه اللحظة، وأتحسر على عدم قدرتي على رؤية تعبير وجهها، ترى هل تبتسم لي بدورها أم لا؟ لكننا ننزل على التل والصمت يخيم علينا، لأننا نحتاج إلى وقت لنستوعب ما قلناه لبعضنا، وما حدث بيننا.

قتوقفني إيناس ونحن نقترب من الشاطئ لتسألني:

هل سَتُبَلِّغِينَ عني؟

لا، لن أفعل ذلك ما حييت! أتفهم حقدك عليَّ ورغبتك في الانتقام مني، غير أنني أرغب في أن يكون هذا الحادث المؤسف بمنزلة دَرْسٍ لي كي أتجنب مآسيَ أخرى.. فلا يزال العديد من المؤثرين والمؤثرات على الإنستغرام والفيسبوك يمارسون التنمر على الآخرين.. لا أدري.. ربما بإمكاننا أن ننشئ جمعية أو نقدم برامج للتوعية لنحارب هذه التصرفات اللا إنسانية.

أصغي إليَّ يا كلارا، عليك أن تفهمي..

أشعر بانزعاجها وهي تحاول موازنة كلماتها جيدًا، حتى تقول بعد صمت طويل:

لن نصير صديقتين أبدًا، يمكنك تنفيذ أفكارك الجميلة لكن لا تُعَوِّلِي على وجودي معك.

إنها حزينة وأنا مثلها تمامًا، لأنني أعرف الآن مقدار الضرر الناتج عن أفعالي السيئة السابقة. ثم أسمع رفاقنا وهم عائدون من رحلتهم البحرية. بينما أدرك أن صفحة تلك الرحلة ستُطوى.. عندما تدق ساعة حَزْمِ حقائبنا غدًا.

* * *

لم أخبر بقية المجموعة بأي شيء عما حدث بيني وبين إيناس. فلا يهمني أن يعرفوا هوية الشخص الذي كان يضايقني ويتسبب لي في المتاعب، ولا ينبغي أن أشير بأصابع الاتهام إلى إيناس لأنني أتفهم رغبتها المشروعة في الانتقام لأختها.. وإنما يجب أن أحيا وأنا أحمل ثِقَلَ هذا الخطأ الفادح، إذ إننا نظن أن الكلمات التي نكتبها ونشاركها مع متابعينا خلف شاشات حواسيبنا وهواتفنا لن تُحْدِثَ أي ضرر، لذا لم أكن أعي فيما مضى أن كلماتي تستطيع أن تسبب جرحًا عميقًا لأحدهم، فلم أكن أهتم سوى لمتابعي حسابي الذين كانوا يحتشدون حولي ويهتفون لي.. ما أسهل السخرية في مواقع التواصل الاجتماعي أمام جمهور أغلبه يصفق لنا فيجعلنا نحس بالعظمة، ونستمتع بجَلْدِ واضطهاد الآخرين وتَصَيُّدِ أخطائهم والتَّنَمُّرِ على هيئتهم ومظهرهم، وجعلهم مادة للسخرية لنضايقهم ونجرحهم دون أن تتحرك ضمائرنا.

أتساءل كيف كنت أتصرف بهذا الغباء وكم كنت عديمة الإحساس، لكنني أملك انطباعًا بأنني فتحتُ عينيَّ أخيرًا على حقيقة كانت أمامي وترافقني كل يوم دون أن ألتفت إليها.. يا له من شعور غريب! أنني لم أتمكن من رؤية هذه الحقيقة إلا عندما أصبحت عمياء!

أمعن النظر في تعاليم إنسان لأكتشف أنه محق تمامًا، إذ يمكننا أن نرى ما يحيط بنا بطريقة أخرى، دونما حاجة إلى استخدام أعيننا.. ففي هذه اللحظة أنا أتوق إلى استكشاف العالم بطريقتي الخاصة، وجعل العلاقات الإنسانية على رأس قائمة أولوياتي، والاستمتاع بما تهديه الطبيعة لنا.

سأنظف الفوضى التي تعم حياتي، وسأغلق حساباتي على الإنستغرام، فيسبوك، يوتيوب، تويتر وسناب شات فأنا لن أنال حريتي سوى بالحفاظ على خصوصيتي! لأن لا أحد يحتاج إلى معرفة ماذا أتناول في وجبة الغداء، أو كيف سأمضي أمسياتي، كما أنني لم أعد بحاجة إلى الإعجابات والتعليقات كي أشعر بأهميتي.. أريد أن أحيا من أجلي فقط، لا من أجل نيل إعجاب الآخرين.

ها هو جول بالقرب مني، لكنني لا أعلم إلى متى سيظل معي. كما أتساءل ما الذي بوسعي إهداؤه له حيث أخشى أن تبعدنا أو تفرقنا إعاقتي، فإن يمضي المرء حياته مع فتاة عمياء ليس بالأمر المبهج، وعلى رغم ذلك

فإنه لا يبتعد عني، ويهتم بي كثيرًا، حيث إنه يطرح عليَّ العديد من الأسئلة ليعرف إذا كنت على ما يرام، أو أحتاج إلى شيء ما، بالإضافة إلى أنه يسليني، ويقرأ لي كتابًا. وعندما نجلس على ضفة البحيرة يصف لي المناظر، أشكال السحب وتدرجات ألوان السماء، وأنا أتخيل هذه المشاهد بما تبقى لي من ذكريات عنها، دون معرفة ما إذا كانت تخيلاتي قريبة من الواقع أم لا..

أقول لجول:

أخاف أن أنسى كل ما تصفه لي.

لا تقلقي، سأكون هنا بجانبك كي أذكرك بكل شيء.

يمسك بيدي ويضغط عليها بقوة، بينما أكمل:

أنا مرتعبة من الزمن الذي يمر ويمحو ذكرياتنا، كما أنني خائفة من أن يتلاشى وجهك من مخيلتي شيئًا فشيئًا، وأن تَغْشَى العتمة قلبي.

يُمرر أصابعي على وجهه، فأتعرف على أنفه المستقيم، شفتيه الممتلئتين وذقنه البارز، ثم يقول لي:

انظري إليَّ بقلبك، وهكذا لن تنسيني أبدًا..

وحين يقترب مني ويحتضني بين ذراعيه أشعر أنه باستطاعتي أن أشعر بالسعادة الحقيقية في نهاية المطاف..

* * *

الخاتمة

أستيقظ لأجد نفسي نائمة على الشاطئ، وجول لا يزال نائمًا بالقرب مني.. لا أعلم كم الساعة الآن، إذ لم يعد بإمكان الشمس أن تساعدني على تحديد الوقت، وأعتقد أن غناء طائر الحسون هو ما أيقظني، إنني أتعرف على هذا الشدو المميز الذي سمعته مسبقًا في مغارة إنسان. فيُهيأ لي أن الحسون يغني من أجلي، وكأنه يرغب في اتباع أنغامه العذبة والصاخبة في آن واحد. ولذا أنهض من مكاني وأتوجه بلا خوف كي أبحث وحدي عن هذا الطائر الذي يرشدني إلى مكانه برفرفة جناحيه، حتى أصل إلى حافة الغابة الاستوائية حيث يصبح غناؤه أقرب، وأدرك أنه يقودني إلى بستان الشجيرات.

لم أعد أخشى الأغصان الميتة أو الجذور الممتدة على الأرض، لأن جسدي يجيد قراءة المعلومات التي تمده بها حواسي.

لكني أسمع همسًا:

هيا، هيا، من هنا.

فأسأل باندهاش:

إنسان؟

إنه هنا! يختبئ خلف إحدى الشجيرات على الأرجح في انتظار أن ألحق به، لقد كنت متأكدة من أن مخيلتي لم تتلاعب بي وأن كل ما عشته كان حقيقيًّا.

فأحاول أن أفهم منه قائلة: ولكن أين اختفيت طيلة هذه المدة؟ ولماذا لم تأتِ إلى الشاطئ عندما قَدِمَ فريق الإنقاذ؟

فيجيبني:

لأنك لم تعودي بحاجة إليَّ، لقد عثرتِ على توازنك وصفائك الروحي، وسيتولى حيوان الطوطم المرتبط بك مهمة حمايتك.

أهز رأسي موافقة، قبل أن أحكي له عن رحلتي في فجوة مقبرة الأرواح، ليعلق قائلًا: سمكة المانتا راي ذات ألوان قوس قزح هي حيوان مذهل، ولهذا ستمنحكِ طاقة هائلة وبفضلها ستكونين قادرة على تحقيق كل ما تحلمين به، لأنها ستساندك على الدوام.

أنا سعيدة لأنني صادفتك مرة أخرى، فأنا سأرحل اليوم، ولم أكن أرغب في مغادرة هذه الجزيرة دون أن أودعك وأشكرك على كل ما فعلته لي، وكل ما علمتني إياه، وأتأكد مما إذا كنتَ حقيقيًّا أم مجرد حلم.

أسمع خطوات قادمة من الشاطئ، إنه جول، قد أتى بحثًا عني وهو يقول: كلارا، هل أنت هنا؟

أجل أنا هنا، انضم إلينا، أريد أن أعرفك على صديقي إنسان.

فيسألني بعدما ينضم إليَّ: من؟

أنادي بصوت عالٍ:

إنسان، هل أنت هنا؟

لكن الإجابة الوحيدة التي أحصل عليها هي شدو طائر الحسون، الذي يعتلي فرع إحدى الشجيرات، وبينما أصغي هذه المرة إلى لحن مبهج ترافقه رفرفة جناحيه.

يقول لي جول:

لا وجود لأي شخص هنا عدانا، هل أنت بخير يا كلارا؟

أخفض رأسي دون محاولة إقناع جول بوجود إنسان.

بينما أتساءل من يكون إنسان؟ ربما يكون روحًا من الأرواح العديدة التي تسكن الغابة كما يقول ويندل، لكنني لا أكترث ولا يهمني أن أعرف إذا ما كان إنسان موجودًا بالفعل أم لا، فالأهم هو أن له وجود في ذاكرتي يستحيل أن تنمحي.

يمسكني جول من ذراعي لنعود إلى الشاطئ، بعدما أدركت انه يحبني ويتقبلني كما أنا، وأنني محظوظة جدًّا لأنني التقيت هذا الفتى وتعرفت إليه.. إن قلبي يخفق بحبه. بينما رفرف الحسون من فوقنا وكأنه يبارك هذا الحب ثم أسمعه وهو يبتعد ليتوغل في الغابة من جديد، فأبتسم له ابتسامة وداع..

لقد رحل إنسان، وما زالت عيناي الخامدتان قادرتين على ذرف الدموع.. حيث تنساب دمعة على خدي، لأودع كلارا القديمة، وعالمها الذي لم يعد يلائمني أو يعني لي شيئًا..

أنا سعيدة، مكتفية، وأرى آفاقًا لا يراها أحد سواي..

الآن فقط، سأبدأ حياتي من جديد!

* * *

تمت

شكر خاص من المؤلف:

جزيرة السيدة إليوت هي جزيرة حقيقية تقع جنوب الحاجز المرجاني الكبير شرق أستراليا، وقد كنت محظوظًا بزيارتها بفضل دعوة السيدة ماري دانييل جاييه، التي أشكرها على هذه الفكرة الرائعة. كما أتوجه بالشكر أيضًا لمارينا ليفيس إيتورنود لأنها أرشدتني طيلة هذه الرحلة، أشكر كذلك أصدقائي وقرائي الأوائل: كريستيان غرونييه، آرميل لاسوريل، وبرونو لامارك على نصائحهم القيمة، دون أن أنسى شكر ناشرتي السيدة أنييس غيران، التي فتحت لي أبواب أدب الناشئة، والتي رافقتني طيلة تأليفي لهذه الرواية.

ختامًا، لم تكن هذه الرواية لتخرج بهذا الشكل دون المعلومات الثمينة التي زودتني بها ابنتي كلارا، وأصدقاؤها: ماري ديوب، جول جاتوني، آرثر سونتيناك، وأنطوان فالينو، الذين شاركوني حياتهم كتلاميذ بالثانوية في خلال حفلة «راكليتي»[13] غنية بالمعلومات.

* * *

الملاحظات

[1←] جان-جاك غولدمان: مغن فرنسي ذو شهرة عالمية بدأ الغناء في السبعينيات حيث أسس فرقة ثلاثية حققت نجاحًا كبيرًا في ذلك الحين.

سمكة المانتا راي: هي نوع من الأسماك يُطلق عليه اسم شيطان البحر. [2←]

[3→]
تلفزة الواقع هو نوع من برامج التلفزيون. يُعرض فيه ما يبدو أنه مَشاهد من دون نص مكتوب أو مشهدية (سيناريو)، من حياة أشخاص معينين، وردود أفعالهم الطبيعية؛ مع إمكانية تحديد البيئة والظروف التي يوجدون فيها والتحكم بها إداريًّا؛ وذلك لإنتاج مادة ترفيهية أكثر مما هي توثيقية.

[4←]
المنشاق: جهاز للاستنشاق ولتسهيل عملية التنفس وهو عبارة عن أنبوب لسحب الهواء إلى ما تحت سطح الماء.

[5←]
روبنسون كروزو: قصة كتبها دانيال ديفو وهي سيرة ذاتية تخيلية وهي تحكي عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيدًا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدًا من البشر.

[6←]

صندوق باندورا: صندوق باندورا في الميثولوجيا الإغريقية، هو صندوق حُمل بواسطة باندورا يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن، ووقاحة ورجاء.

[7←]

الكرونومتر: هو نوع من الساعات الدقيقة جدًّا التي تُستخدم في البحرية ويستخدمها أيضًا الطيارون.

فتحة النفث: هي فتحة في رؤوس الحيتانيات تستعملها لتنفُّس الهواء عند الصعود إلى سطح الماء. [←8]

نبات السرخس: شعبة من النباتات التي تنمو في الأوساط الرطبة. [9←]

[10←]

ديدان العلق: نوع من الحيوانات يتبع الفصيلة العلقية التي تعيش في مياه البرك والمستنقعات وحتى في جسم الإنسان وتتغذى على الضفادع والأسماك واللا فقريات الأخرى.

[11←]
شجر اللبخ: نوع ينتمي إلى جنس الألبيزيا من الفصيلة البقولية. موطنها الأصلي جنوب آسيا. وتُستخدم في وسائل طبية متعددة.

[12←]

الثقافة القوطية: ثقافة شبابية ظهرت في البداية بإنجلترا في بداية الثمانينيات، وانتشرت عبر العالم، وهي ثقافة لديها ميول ثقافية وفنية وموسيقية مميزة، وتشمل أيضًا الأدب والسينما والأزياء المستوحاة من العصور السابقة كالعصر الإدواردي والعصر الفيكتوري، وغالبًا ما تكون الأزياء داكنة وغريبة، استمرت هذه الثقافة في جلب اهتمام عدد كبير من الأتباع إلى يومنا هذا.

[←13]
راكليتي: أكلة سويسرية مشهورة ذات أصول فرنسية ولها رائحة عطرية، وهي عبارة عن جبنة ذات قوام شبه صلب تؤكل بعد إذابتها مع التوست المحمص أو الدجاج أو البطاطا أو مع شرائح البصل واللحم المقدد السويسري.